من أسرار التعبير القرآني في بيانه عن الصحف

دراسة بلاغية بين المقام والسياق

إعداد

د/محمد صـــلاح سـالم نجم

مدرس البلاغـة والنقـد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

ض

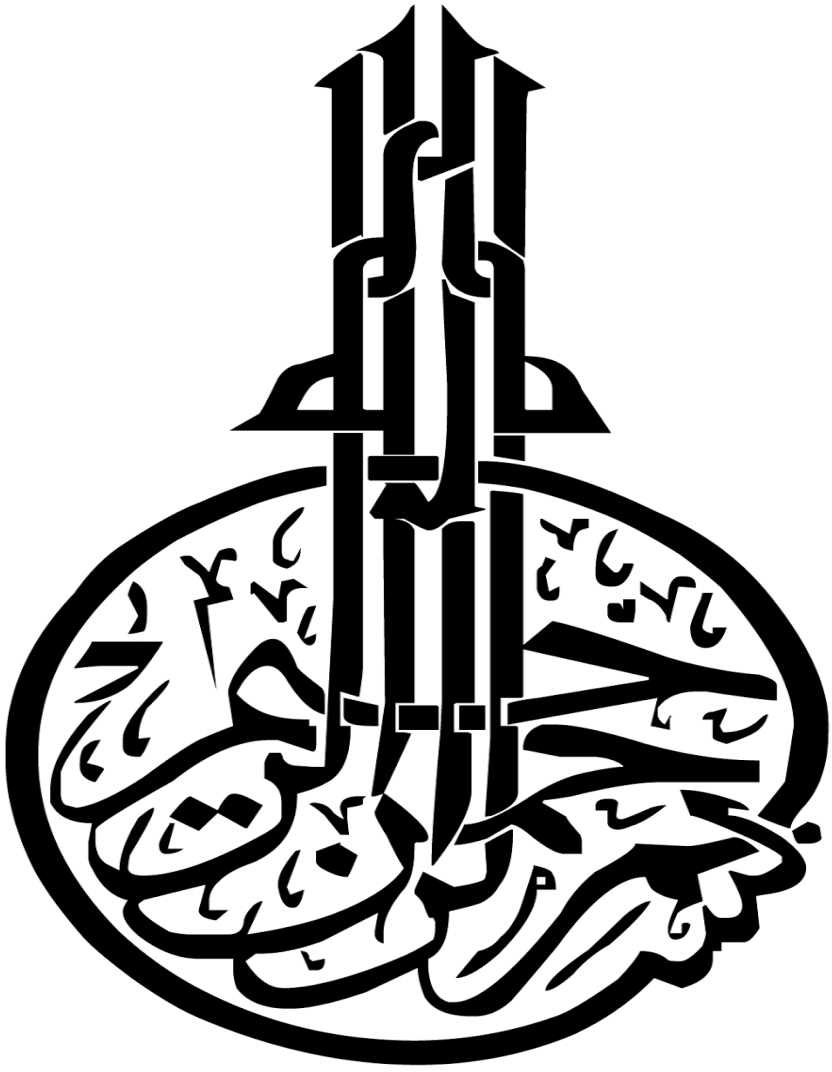

من أسرار التعبير القرآني في بيانه عن الصحف دراسة بلاغية بين المقام والسياق
محمد صلاح سالم نجم.
قسم البلاغة والنقد كلية اللغة العربية بالمنوفية جامعة الأزهر القاهرة
جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:
Mohamed negm.lan@ azhar.edu.eg.

ملخص البحث

هذا البحث يتناول مفردة من مفردات القرآن الكريم، ألا وهي "الصحف"، وتمت دراستها من خلال المنهج الاستقرائي التحليلي، واهتم البحث بالمقام والسياق الذي وردت فيه اللفظة القرآنية، ومهد البحث بالحديث عن معناها وخصائها اللغوية، ومكانتها في القرآن الكريم، وثنىٰ بالوقوف علىٰ مقاماتها وسياقاتها القرآنية، وتوصل إلي تعدد المراد بها في تلك المقامات، كما توصل إلي اختلاف هيئتها، واختلاف موقعها في الجملة القرآنية ، ثم عني البحث ببيان الفروق الدلالية للكلمة في أماكن ورودها، وعلاقتها بمقصد السورة، وتحدث البحث عن ما جاء من صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ في القرآن الكريم كما في سورتي النجم والأعلىٰ، وما نتج عنه من اتحاد أصول الرسالات السماوية، وكل ذلك متناول من خلال البلاغة العربية التي يدرك بها إعجاز القرآن الكريم، وتوصلت الدراسة في النهاية إلي نتائج كثيرة، كان من أهمها: أن الصحف لم ترد في الذكر الحكيم إلا ثماني مرات فقط، كما أنها لم ترد إلا جمع تكسير علىٰ وزن من أوزانه النادرة غير القياسية وهو: "فُعُلٌ"، كما توصل البحث إلي أن المراد بها مختلف، فتارة يكون المراد بها القرآن الكريم، أو التوراة، أو صحف البراءة من النار، أو صحف الأعمال، وكل ذلك مرهون بساقها القريب والمديد، ويوصي

البحث بدراسة ما جاء في الكتب السماوية، وتحدث عنه القرآن الكريم؛ لأن ذلك يعطينا صورة إعجازية جديدة لأساليب القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: البلاغة ـ الصحف الأولىٰ ـ المقام ـ السياق ـ التسلية ـ التعنيف ـ التهديد ـ التوبيخ .

Among the secrets of the Qur'anic expression in its statement about newspapers - a rhetorical study between the place and the context

Mohamed Salah Salem Negm.

Department: Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language in Menoufia - Al-Azhar University - Cairo - Arab Republic of Egypt.

E-mail : Mohamed negm .lan@ azhar.edu.eg

Abstract:

This research deals with one of the vocabulary of the Holy Qur'an, namely, "newspapers", and it was studied through the inductive-analytical method. and its Qur'anic contexts, and reached the multiplicity of what is meant by it in those stations, as well as its different form, and its different position in the Qur'anic sentence, then about me.

The search explained the semantic differences of the word in the places of its occurrence, and its relationship to the purpose of the surah, and the research talked about what came from the scriptures of Abraham and Moses - peace be upon them - in the Holy Qur'an as in the two surahs Al-Najm and Al-A`la, and what resulted from the union of the origins of the heavenly messages, and all of this is dealt with through rhetoric The Arabic language in which the inimitability of the Noble Qur'an is realized. In the end, the study reached many results, the most important of which were: The newspapers only mentioned eight articles in the Holy Qur'an. Only times, and it only wanted to collect cracking on one of its rare non-standard weights, which is: "verb", as the research found that what is meant by it is different, sometimes it is meant by the Holy Qur'an, or the Torah, or the newspapers of innocence from the fire, or the newspapers Works, and all of this depends on its

short and long leg. The research recommends studying what was mentioned in the heavenly books, and the Holy Qur’an talked about it; Because that gives us a new miraculous picture of the methods of the Holy Qur'an.

Keywords: rhetoric - early newspapers - standing - context - entertainment - violence - threat - reprimand.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام علىٰ أبين العرب أجمعين سيدنا محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ خير من نطق بالضاد فأفصح وأجاد، وعلىٰ آله وأصحابه ذوي النفوس النقية، والألسن الندية.

وبعد:

فهذا بحث في مفردة من مفردات القرآن الكريم، ألا وهي (الصحف) ودراسة مفردات القرآن الكريم دراسة بلاغية موضوع متعدد المناحي؛ لأن الباحث ينظر إليها من جهات متعددة مثل: الإفراد والتثنية والجمع، ومثل: موقعها في الجملة من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، ومثل: علاقتها بالسياق السابق واللاحق وغير ذلك.

وكلمة الصحف ليس لها مفردٌ في الذكر الحكيم، فأتت في كل مواطنها جمعًا معدولا به عن القياس إلي الندرة، وتعددت دلالاتها في سياقها القرآني، فأريد بها الكتب السماوية، وصحف الأعمال، وصحف البراءة من النار وغير ذلك، واقترنت الصحف في القرآن بنبيين كريمين هما: سيدنا إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ وحاول البحث بيان سر ذلك الاختصاص دون سائر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

وما من شكٍ أن قواعد الإسلام وأسسه أصولٌ ثابتة أقرتها جميع الرسالات السماوية السابقة، ومن أهم تلك المبادئ الأساسية المتفق عليها في الديانات السابقة ما ذكره القرآن الكريم مما هو موجود في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ مثل: أن كل إنسانٍ رهنٌ بعمله، وغير ذلك مما هو في سورتي النجم والأعلىٰ.

وتحقيق فهم المعنىٰ القرآني فهمًا صحيحًا يقوم علىٰ فقه دلالات المفردات، والأعيان من علماء اللغة والبلاغة نبهوا إلي ضرورة هذا الفقه، وللشيخ عبدالقاهر (ت٤٧١هـ) حديث مستفيض في الدلائل بين فيه دقة المفردة القرآنية، ومناسبتها لسياقها، كما بين سر انبهار العرب بالقرآن فقال: " وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورةً، وعشرًا عشرًا، وآية آيةً، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرىٰ أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرىٰ أو أخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور"(١)، وبين الراغب الأصفهاني (ت٥٠٠هـ) ـ هو الآخر ـ ضرورة وقوف الباحثين أمام مفردات القرآن لمعرفة مدلولاتها اللغوية والبلاغية فقال: "إن أول ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، وتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعًا في علم القرآن فقط، بل هو نافعٌ في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وَزُبْدَتُه، وواسطة كرائمه، وعليه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"(٢)، لهذا وغيره تناولت مفردة (الصحف) في الذكر الحكيم بالبحث البلاغي، **وكان من أهم الدوافع ما يأتي:**

---

(١) ـ دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ ـ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر ـ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ـ صـ: ٣٩ ـ ط/ الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٢) ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٠هـ) صـ: ٢٤ ـ تح الشيخ/ مصطفىٰ العدوي ـ الناشر/ مكتبة فياض بالمنصورة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

أولًا: معرفة ماهيتها، وسر جمعها النادر الذي جاءت عليه في القرآن الكريم، حيث لم تأت في موضع من المواضع مفردة أو مثناةً.

ثانيًا: أسباب تسمية الكتب السماوية المنزلة علىٰ الأنبياء جميعا بـ(الصحف)، مع أن الشائع أن الصحف نزلت علىٰ أبي الأنبياء الثاني سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

ثالثًا: بيان مقاماتها القرآنية، وما اشتملت عليه من أسرار بلاغية.

رابعًا: بيان الأسرار البلاغية لما اتفقت عليه الشرائع السماوية كشريعة سيدنا إبراهيم، وموسىٰ، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من مبادئ أساسية أثبتها الله ـ جل ذكره ـ في سورتي النجم والأعلىٰ.

خامسًا: إثراء المكتبة البلاغية بدراسة في هذا الجانب؛ لأنه لم توجد دراسة سابقة تتعلق بالصحف السماوية السابقة.

منهج البحث:

استعنت في البحث بالمنهج الاستقرائي والتحليلي، فقمت باستقراء مواضع ورود كلمة (الصحف) في القرآن الكريم، وتبين أنها لم ترد إلا ثماني مرات فقط، ثم قمت بدراسة مقامات هذه الكلمة، وبيان المراد منها في كل مقام.

خطة البحث:

وقد توزع البحث علىٰ مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

تحدثت في المقدمة عن فكرة البحث، وأسباب اختياره، ومنهجه، وخطته التي استقام عليها.

أما التمهيد فقد وسمته بـ: الصحف تعريفها، ومكانتها في القرآن الكريم، ويشتمل علىٰ ثلاثة مطالب:

الأول: الصحف في اللسان العربي.

الثاني: الصحف من المنظور اللغوي.

الثالث: مكانة الصحف في القرآن الكريم.

المبحث الأول: الصحف بين المقام، والسياق القرآني، ويشتمل علىٰ سبعة مطالب:

الأول: مقام التعنيف والتسلية.

الثاني: مقام التهديد والتوبيخ

الثالث: مقام العتاب.

الرابع: مقام التقريع.

الخامس: مقام أهوال يوم القيامة.

السادس: مقام تصحيح الفهوم الخاطئة، والاعتقادات الباطلة.

السابع: مقام الإخبار والإنذار.

المبحث الثاني: مقامات اتفاق القرآن الكريم لما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ من مبادئ أساسية، ويشتمل علىٰ مطلبين:

المطلب الأول: بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عيهما السلام ـ في سورة (النجم)، وفيه ثلاث مقامات:

المقام الأول: مقام مؤاخذة الإنسان بذنبه، وإثابته بعمله.

المقام الثاني: مقام طلاقة القدرة الإلهية.

المقام الثالث: مقام بيان مصير منكري الرسالات.

المطلب الثاني: بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عيهما السلام ـ في سورة (الأعلىٰ).

وتأتي الخاتمة في النهاية كاشفة عما توصّلت إليه الدراسة من نتائج، ويعقبها الفهارس الفنية، وهذا العمل البشري توفيق من الله ـ تعالىٰ ـ وراقنه ممن يخطئ ويصيب، فإن أصبت فذلك من فضل الله، وإن أخطأت فرجائي من المتلقي الكريم التغاضي عن الهفوات، وإعانتي علىٰ سد الفجوات، والله المستعان.

التمهيد

الصحف تعريفها، ومكانتها في القرآن الكريم

عُني أسلافنا من العلماء بالنظر إلي اللفظ المفرد، وحصروا مواقع الغلط فيه، وأرجعوها إلي ثلاثة هي: "الجهل بالأدلة الإفرادية، والإعرابية، ومواقع التركيب"(١) والمراد بالأدلة الإفرادية الدلالات المتعلقة بالكلمة مثل: معناها الوضعي، وصيغتها، واشتقاقها وغير ذلك من الدلالات المتعلقة بهيئتها كطولها وقصرها، وخفتها وثقلها، ولكي يتفادىٰ البحث الوقوع في دائرة الغلط يقف التمهيد عند المدلول اللغوي لكلمة الصحف، ويكون ذلك في مطالب:

(١) ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ لكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني المتوفي ٦٥١هـ ـ صـ: ٤٤

المطلب الأول: الصحف في اللسان العربي

يقول الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) ـ رحمه الله ـ: "الصحف: جمع صحيفةٍ يخفف ويثقل، مثل: سَفينةٍ وسُفُن نادرتان، وقياسه صحائف وسفائن، وصحيفة الوجه بشرة جلده... وسمي المصحف مصحفًا؛ لأنه أصحف أي: جعل جامعًا للصحف المكتوبة بين الدفتين"(١).

ويقول ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ـ رحمه الله ـ: "الصاد والحاء والفاء أصلٌ صحيحٌ يدل علىٰ انبساط الشيء في سعةٍ، يقال: إن الصحيف وجه الأرض، والصحيفة: بشرة جلد الرجل.

قال البعيث:

وكلُّ كُليبي صـــحيفة وجهه أذل لأقدام الرجال من النعل

ومن الباب الصحيفة، وهي التي يكتب فيها، والجمع صحائف، والصحف أيضًا"(٢).

وأوضح أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ـ رحمه الله ـ أن (الصحيفة) يلازمها الكتابة، فقال في الفرق بين الصحيفة والدفتر: "إن الدفتر لا يكون إلا أوراقًا مجموعةً، والصحيفة تكون ورقة واحدةً تقول: عندي صحيفة بيضاء، فإذا قلت: صحفٌ أفدت أنها مكتوبةٌ، وقال بعضهم: يقال: صحائف بيضٍ، ولا يقال: صحفٌ بيضٌ، وإنما يقال: من صحائف إلي صحفٍ ليفيد أنها

(١) ـ العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) ـ تح/ مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي ـ باب الحاء والصاد والفاء معهما (٣/ ١٢٠)

(٢) ـ مقاييس اللغة ـ لأحمد بن فارس ت٣٩٥هـ ـ تح/ عبدالسلام هارون ـ مادة "صحف" ـ الناشر/ دار الفكر للطباعة والنشر.

مكتوبةٌ، وفي القرآن: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[التكوير: ١٠] وقال أبو بكرٍ: الصحيفة قطعةٌ من أدمٍ أبيض، أو ورقٍ يكتب فيه)(١)

وقال الراغب الأصفهاني: "الصحيفة المبسوط من الشيء كصحيفة الوجه، والصحيفة التي يكتب فيها، وجمعها صحائف وصحف"(٢).

وقال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ـ رحمه الله ـ: "صحيفةٌ، وصحفٌ، وصحائفٌ: قطعة من جلدٍ، أو قرطاسٍ يكتب فيها"(٣).

وقال ابن منظور ـ رحمه الله ـ: "قال الأزهري: الصحف: جمع الصحيفة من النوادر، وهو أن تجمع "فَعِيلةٌ" علىٰ "فعلٍ" ومثله: سفينةٌ وسفن، قال: وكان قياسهما: صحائف، وسفائن... وأما ما كان عدد حروفه أربعة أحرفٍ وفيه هاء التأنيث وكان "فَعِيلةٌ" فإنك تكسِّرُه علىٰ "فَعَائِل" وذلك نحو: "صحيفةٌ وصحائفٌ" و "قبيلةٌ وقبائلٌ" و "كتيبةٌ وكتائبٌ" و "سفينةٌ وسفائنٌ" و "حديدةٌ وحدائدٌ" وذا أكثر من أن يحصىٰ، وربما كسَّرُوهُ علىٰ "فُعُلٍ" وهو قليلٌ، قالوا: "سفينةٌ وسفنٌ" و"صحيفةٌ وصحفٌ" شبهوا ذلك بـ "قليبٍ وقلبٍ" كأنهم جمعوا "سفينٍ وصحيفٍ" حين علموا أن الهاء ذاهبةٌ شبهوها بـ "جِفارٍ وجفرٍ" حين أجريت مجرىٰ "جمدٍ وجماد"(٤).

---

(١) ـ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ـ تح/ عماد زكي البارون ـ مادة (صحف) صـ: ١١٣ ـ الناشر/ المكتبة التوفيقية ـ بدون تاريخ

(٢) ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ (صحف)

(٣) ـ أساس البلاغة للزمخشري ـ تح/ محمد باسل عيون السود ـ مادة "صحف" ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٤) ـ لسان العرب لابن منظور ـ تح/ عبدالله الكبير وآخرون ـ مادة "صحف" ـ الناشر/ دار المعارف ـ بدون تاريخ

ومن خلال التأمل وإعادة النظر فيما ذكره علماء المعاجم العربية حول معنى كلمة "صحف" اتضح لي أن الجميع متفقٌ علىٰ أن لكلمة "صحيفة" جمعان، فتجمع علىٰ صحائف، وصحف، وفي تفريق العلامة أبي هلال العسكري ـ رحمه الله ـ للجمعين يمكن أن يُستنتج منه أن الصحائف تقال للأوراق البيض التي لم يكتب فيها شيءٌ البتة، وأن الصحف بهذا الجمع النادر القليل تطلق علىٰ الأوراق المكتوب فيها بالفعل.

وبان لي ـ كذلك ـ أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو من ذكر أن الجمعين مختلفان، وتبعه ابن منظور في هذا، فذكر أن الجمع القياسي لـ(صحيفة) هو (صحائف)، وأن الجمع القليل النادر هو (صحفٌ)، وأوضح العلامة ابن منظور أن الجمعين اللذين يجمع عليهما كلمة (صحيفة) هما جمعا تكسيرٍ، أحدهما قياسيٌ، والآخر نادرٌ.

وأخلص من هذا كله إلي أن سر العدول عن الجمع القياسي (صحائف) إلي الجمع النادر القليل (صحف) في القرآن الكريم كان للدلالة علىٰ غرض معينٍ وهو: إرادة العدد الكثير من الصحف دون القليل منها، وأكد ابن يعيش (ت٦٤٣هـ) ـ رحمه الله ـ ذلك حين ذكر أن ما بني علىٰ (فَعَالةٍ كحمامة)، وما بني علىٰ (فِعَالة كعمامة)، وما بني علىٰ (فُعَالة كذُؤابة)، وما بني علىٰ (فَعِيلة كصحيفة)، وما بني علىٰ (فَعُولة كحمولة) من الأسماء أن يجمع جمع تكسير علىٰ (فَعَائل)؛ "لأنهم أرادوا الفصل بين جمع المذكر والمؤنث من هذه الأبنية... فإذا أردت العدد القليل جمعته بالألف والتاء نحو: حمامات، ورسالات، وذؤابات، وصحيفات، وحمولات، وربما قالوا: ثلاث

صحائف ورسائل، فاستعملوا هذا البناء في القليل"[1] وهذا ـ في ظني ـ تنبيهٌ للإنسان إلي أن كل ما يصدر عنه أو منه مكتوب ومسجل عليه في (صحفٍ) تزداد يومـًا بعد يومٍ، ومحال أن يأتيها الإنسان يوم القيامة، ويلقاها صحائف قليلة بيضاء لا كتابة فيها، كما ذكر أبو هلال العسكري آنفًا في صفة الصحائف.

❁❁❁❁❁

(١) ـ شرح المفصل لابن يعيش (ت٦٤٣هـ) ـ تح د/ إميل بديع يعقوب ـ (٣/ ٢٨٢) ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

المطلب الثاني: الصحف من المنظور اللغوي

ينظر هذا المطلب إلي جهة أخرىٰ من جهات النظر إلي الكلمة القرآنية وهو النظر إليها من خلال الإفراد والتثنية والجمع، ومن خلال الاستقراء والنظر في مواقع ورودها في القرآن الكريم تبين لي أنها لم ترد إلا في قالب الجمع، فلم ترد مفردةً، ولا مثناةً، وأن الجمع الذي جاءت عليه هو جمع التكسير، وجمع التكسير عرَّفَهُ النحاة بأنه "ما تغيرت فيه صيغة الواحد إما بزيادةٍ كـ (صِنْوٍ وصِنوان) أو نقصٍ كـ (تخمةٍ وتخم) أو تبديل شكلٍ كـ (أَسَدٍ وأُسْدٍ) أو بنقصٍ وتبديل شكلٍ كـ (رُسُلٍ) أو بهن كـ (غلمانٍ)"(١).

وكلمة (صحيفةٍ) كما سبقت الإشارة تجمع جمعًا قياسيًا علىٰ وزن (فعائل) وجمعًا نادرًا علىٰ وزن (فُعُلٍ)، والجمعان من أبنية جموع الكثرة الثلاثة والعشرين، فـ (فُعُلٍ) هو البناء الثاني لجموع الكثرة، يقول ابن هشامٍ ـ رحمه الله ـ: "الثاني: (فُعُلٍ) بضمتين وهو مضطردٌ في شيئين: في وصفٍ علىٰ (فَعُولٍ) بمعنىٰ (فاعل) كـ (صبور وغفورٍ)، وفي اسم رباعيٍ بمدة قبل لامٍ غير معتلةٍ مطلقًا، أو غير مضاعفةٍ إن كانت المدة ألفًا نحو: (قَذَالٍ، وأَتَانٍ) ونحو: (حمارٍ، وذراعٍ) ونحو: (قُرادٍ، وكراعٍ) ونحو: (عمودٍ وقلوصٍ)، ونحو: (سريرٍ، وذلولٍ)، وخرج نحو: (كِساءٍ، وقِباءٍ)؛ لأجل اعتلال اللام،

(١) ـ أوضح المسالك إلي ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، وعليه عدة السالك إلي تحقيق أوضح المسالك للشيخ/ محمد محي الدين عبدالحميد ـ (٤/ ٣٠٧) ـ الناشر/ المكتبة العصرية ـ صيدا/ بيروت ـ بدون تاريخ

ونحو: (هِلال، وسِنان)؛ لأجل تضعيفهما مع الألف، وشذَّ (عِنانٍ، وعُنُنٍ) و(حجاجٍ وحججٍ) ويحفظ في نحو (نمرٍ، وخشنٍ، ونذيرٍ، وصحيفةٍ)"(١).

و(فَعَائل) هو البناء الثامن عشر من أبنية جموع الكثرة، يقول ابن هشام: "الثامن عشر: (فَعَائل) ويطرد في كل رباعيٍ مؤنثٍ ثالثه مَدَّةٌ سواء كان تأنيثه بالتاء كـ (سحابة، وصحيفة، وحلوبةٍ)، أو بالمعنىٰ كـ (شمالٍ، وعجوزٍ، وسعيدٍ علم امرأةٍ)"(٢).

هذا ما ذكره العلماء حول خصائص الجمعين اللذين يجمع عليهما المفرد الذي علىٰ وزن "فَعِيلة" كـ(صحيفةٍ، وسفينةٍ)، وقد أبنت عنه لغرض التوصل إلي الأمور المتعلقة بهذا اللفظ القرآني من حيث تعدد دلالاته، وموقعه في تركيب الجملة كما سيأتي في المبحث الأول.

❁❁❁❁❁

(١) ـ السابق: (٤/ ٣١٣)

(٢) ـ السابق: (٤/ ٣٢١)

المطلب الثالث: الصحف في القرآن الكريم

باستقراء آيات الذكر الحكيم للتعرف علىٰ مواقع كلمة (صحف)، وعدد مرات ورودها يتضح أنها وردت ثماني مراتٍ فقط في السور الآتية: [طه/ ١٣٣]، و [النجم: ٣٦]، و [المدثر: ٥٢]، و[عبس: ١٣]، و[التكوير: ١٠]، و [الأعلىٰ: ١٨، ١٩]، و [البينة: ٢]. واختلف العلماء حول السور التي وردت فيها كلمة (الصحف) بين المكي والمدني، فالعلامة ابن كثير(ت٧٧٤هـ) جعلها قاطبة من القرآن المكي[١] أما السيوطي ـ رحمه الله ـ (ت٩١١هـ) فقد ذكر خلاف العلماء حول سورتي (الأعلىٰ، والبينة) من حيث المكي والمدني، [٢].

ولتلك اللفظة مكانة ومنزلة في القرآن الكريم، وتتضح مكانتها حين نعلم أنها أحد الكتب السماوية التي نزلت علىٰ الرسل السابقين كسيدنا إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ، ومن أهم ما يوضح مكانة الصحف السابقة التي نزلت علىٰ الأنبياء أن الله ـ جلت قدرته ـ حكىٰ لنا بعض ما جاء فيها كما في سورتي: النجم، والأعلىٰ، وعين ما جاء فيهما هو عين ما ختمت به الرسالات السماوية، وألا وهي رسالة النبي العدنان سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسيكشف المبحث الثاني عن بعض ما جاء في الصحف

(١) ـ تفسير القرآن العظيم ـ للحافظ اسماعيل بن كثيرٍ (ت٧٧٤هـ) ـ (١/ ٦) ـ الناشر/ دار الحديث بالقاهرة ـ ط/ الثانية ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

(٢) ـ الإتقان في علوم القرآن ـ لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ) تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ (١/ ٥٢، ٥٤) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط/ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤

السابقة وحكاه القرآن بالمضمون، وفي ذلك دلالة علىٰ اتحاد الرسالات السماوية، واتفاقها في أصول الشرائع.

ومن المكانة والمنزلة العالية لكلمة (الصحف) في القرآن الكريم أنها تثبت باللفظ الصريح أن ما قد أنزل علىٰ محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ من القرآن قبل مغادرته من مكة إلي المدينة ـ أي قبل عام الهجرة ـ كان مثبوتًا بالكتابة، ومن السور التي تدل علىٰ ذلك سورتي: عبس في الآيات من [١١ـ١٦]، والبينة في الآيتين الثانية، والثالثة، وفي ذلك دلالة علىٰ أن القرآن الكريم كان محفوظًا في الصدور، والسطور من بدء الوحي.

وهناك جهات متعددة ينظر من خلالها إلي مكانة ومنزلة وبلاغة هذه المفردة القرآنية، الجهة الأولىٰ: "من خلال مادتها اللغوية، والجهة الثانية: من خلال هيئتها في الجملة" (١)، والجهة الثالثة: من خلال سياقها القريب في الآية وعلاقتها بسباقها ولحاقها، والجهة الرابعة: من خلال سياقها المديد أعني ما قبل الآية التي وردت فيها الكمة القرآنية محل البحث، وما بعدها من آيات، وعلاقة ذلك بمقصود السورة الأعظم، ومن خلال تلك الجهات ندرك أن للكلمة القرآنية شأن عظيم أي شأن، ولها أثر بالغ الأهمية في إدراك معاني القرآن الكريم الكلية.

كان الحديث عن معنىٰ كلمة (الصحف) تلك المفردة القرآنية، وخصائصها عند اللغويين ومكانتها في القرآن الكريم مهادًا للحديث عن مقاماتها، وسياقها الذي يتجلىٰ منه مدىٰ التناغم والتناسب والتلاؤم بينهما، وغير ذلك مما تتعرض له الدراسة.

❁❁❁❁❁

(١) ـ ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ لكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني المتوفي ٦٥١هـ ـ تح/ د/ خديجة الحديثي، د/ أحمد مطلوب ـ صـ: ٧٨، ٧٩ ـ مطبعة بغداد ـ ط/ الأولىٰ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م

المبحث الأول: (الصحف) بين المقام، والسياق القرآني

قبل التعرف علىٰ المقامات التي وردت فيها كلمة (الصحف) في القرآن الكريم يحسن إلقاء الضوء علىٰ المراد بالمقام والسياق في شيءٍ من الإيجاز، والهدف من الإحاطة الموجزة بهما هو إعلام غير المتخصصين بمعناهما؛ لإيضاح المعنىٰ، وإزالة اللبس.

مفهوم المقام والسياق:

استقر البلاغيون على أن المقام هو: "الأمر الداعي للمتكلم إلي أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما"(١)، والمقام جمعه مقامات، والمراد بها "الأمور المقتضية لاعتبار خصوصية ما في الكلام"(٢)، وهذه المقامات مختلفة ومتباينةٌ، فهناك مقامٌ للحذف، ومقام للذكر، ومقام للتعريف، وآخر للتنكير، وهكذا.

أما السياق فهو "الإطار العام الذي تنتظم فيه عناصر النص، ووحدته اللغوية، وتراعىٰ فيه جميع العناصر المعرفية التي يقدمها القارئ للنص"(٣)

والسياق ينقسم قسمين: "سياق داخليٌ، ويطلق عليه السياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر، أو التحليل، ويشمل ما يسبق وما يلحق،

---

(١) ـ مختصر السعد التفتازاني علىٰ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ـ ضمن شروح التلخيص ـ (١/ ١٣١) ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي

(٢) ـ حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد علىٰ تلخيص المفتاح ـ ضمن شروح التلخيص ـ (١/ ١٢٥) ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي

(٣) ـ أثر السياق في التأويل البلاغي قديمًا وحديثًا ـ أد/ محمود موسي حمدان ـ صـ: ٥ ـ بحث منشور في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ط/ ١٤٢٧هـ.

وسياق خارجيٌ، ويطلق عليه سياق الحال، والمقام، وما يتصل به من عناصر الزمان والمكان والمتكلم والمخاطب"(١)

وبإمعان النظر والتأمل في المقام الذي أتت فيه كلمة (الصحف) في الذكر الحكيم تبين أنها سيقت في مقامات مختلفة، وأن سياق تلك الكلمة يتناسب مع مقامها الذي وردت فيه، وتجلي المطالب الآتية مقامات كلمة (الصحف) في الذكر الحكيم.

❁❁❁❁❁

(١) ـ تحويلات الطلب، ومحددات الدلالة ـ د/ حسام أحمد قاسم ـ صـ: ٢٠٠ـ الناشر/ دار الآفاق العربية ـ ط/ الأولىٰ ٢٠٠٧م

المطلب الأول: مقام التعنيف والتسلية

التعنيف لا يوجه إلي شخص ما إلا إذا كان متعنتًا مكابرًا لا يستمع لنصح، ولا يراعي مقام أدب في الخطاب، والمشركون في خطابهم للرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كانوا متعنتين مكابرين، والعنت كما يقول الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ: " كالمعاندة، لكن المعانتة أبلغ؛ لأنها معاندة فيها خوفٌ وهلاكٌ، ولهذا يقال: عنت فلانٌ إذا وقع في أمرٍ يخاف منه التلف"(١)، والمكابرة من الكبر، والكبر هو: "إظهار عظم الشأن، وهو في صفات الله مدحٌ؛ لأن شأن الله عظيمٌ، وفي صفاتنا ذمٌ؛ لأن شأننا صغيرٌ، وهو أهلٌ للعظمة، ولسنا لها بأهلٍ"(٢)، ومن المعنىٰ اللغوي للتعنت والمكابرة يتضح أنهم جديرون بالتعنيف لسوء خطابهم، وأن رد الله ـ تعالىٰ ـ بنفسه عليهم فيه تسليةٌ لرسوله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ، وشاهد هذا المقام فيما الدراسة بصدد البيان عنه من إيضاح مقامات (الصحف) في الذكر الحكيم: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

(١) ـ مفردات ألفاظ القرآن: مادة "عنت"

(٢) ـ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: (كبر)

فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَ ٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة طه:١٢٨-١٣٥].

جاءت كلمة (الصحف) في سياق بيان الله ـ تعالىٰ ـ لرسوله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ضلال ما عليه بني زمنه من كفار قريشٍ، وغيرهم، من الذين ساروا في بلاد الأمم السابقة، التي هلكت كعادٍ وثمود وغيرهما، وهم مع ذلك يكفرون بنعمة الإيمان بك، وما أنزلناه عليك من الهدي ودين الحق، وبعد أن بين ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه سيؤخر جزاءهم إلي الآخرة أمر نبيه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بالصبر علىٰ ما يقول الكافرون، وكذلك أمره بالتسبيح، ونهاه عن مَدِّ عينيه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ إلي مُتع الكفرة؛ لأنها موقوته الجمال، سرعان ما تفتن بزينتها، وسرعان ما تزول بهجتها، وأعقب ذلك مقام تعنت الكافرين ومكابرتهم، وحرصهم الشنيع علىٰ التلفظ بقول فاسدٍ مفسدٍ، وهو قولهم لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فيما حكاه القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي علىٰ صدق دعواه النبوة والرسالة، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية: "جيء بشنعٍ من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فمن أقوالهم التي يقصدون منها التعنت والمكابرة أن قالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ فنؤمن برسالته كما قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]"[(١)].

(١) ـ تحرير المعنىٰ السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب العزيز المعروف بالتحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) ـ (١٦/ ٣٤٤) الناشر/ الدار التونسية للنشر ـ ط/ ١٩٨٤م

ومما سبق يظهر أن المقام الذي ورت فيه كلمة (الصحف) هو التعنيف والتسلية بسبب التعنت والمكابرة، وهو مقام انفعاليٌ يقصد منه تعجيز المخاطب، وهذا مفهوم من أداة التحضيض التي صدَّروا بها قولهم الشنيع، حيث يثير هذا القول إزعاجًا لدىٰ المخاطب، يقول ابن هشام الأنصاري ـ رحمه الله ـ: "(لولا) علىٰ أربعة أوجهٍ... أحدها: أن تدخل علىٰ جملتين اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولىٰ نحو: (لولا زيدٌ لأكرمتك) أي لولا زيد موجود... الثاني: أن تكون للتحضيض والعرض فتختص بالمضارع، أو ما في تأويله نحو: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٦]، ونحو: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، والفرق بينهما: أن التحضيض طلب بحثٍ وإزعاج، والعرض طلبٌ بلين وتأدب"(١)، فاتضح إذن أن غرض المشركين من هذا الطلب هو إثارة الإزعاج، وهذا من شأنه أن ينكر عليهم؛ لأنهم لم يراعوا في طلبهم هذا التأدب في مقام النبوة، ومن ثمَّ أنكر عليهم، وجاء الرد عليهم من قبل الله ـ جل شأنه ـ بالتوبيخ حيث قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والهمزة في هذا الرد تفيد الإنكار، يقول الشيخ الطاهر ـ رحمه الله ـ: "فالاستفهام إنكاريٌ أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم عل الإتيان به"(٢).

---

(١) ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لأبي عبدالله بن هشام الأنصاري المصري (ت٧٦١هـ)ـ تح/ محمد محي الدين عبدالحميد ـ (١/ ٢٨٩) ـ الناشر/ دار الطلائع ـ ط/ ٢٠٠٩م

(٢) ـ التحرير والتنوير ـ (١٦/ ٣٤٤)

وحينما يعاد النظر في جواب الطلب التحضيضي بـ (لولا) يتضح أنه من الاستفهامات المنفية في القرآن الكريم حيث إن همزة الاستفهام للنفي، وأعقبها (لم) النافية ونفي النفي إثبات كما يقول النحاة، وحينئذ يؤول المعنىٰ إلي الإثبات، أي بلىٰ أتاهم بينة ما في الصحف الأولىٰ، كما يتضح أن الطلب التحضيضي أجيب عنه بطلب أيضًا لإفحامهم وتبكيتهم.

ولكن هل أدوات العرض والتحضيض تستلزم جوابا؟ والجواب: نعم، وذلك إذا أشربت معنىٰ الاستفهام، ويحسن النظر إلي ما قاله سلفنا الصالح من العلماء الأثبات ـ رحمهم الله ـ في هذا الأمر، فأبو زكريا الفراء علق علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[الفرقان: ٧، ٨] بقوله: "﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ جوابٌ بالفاء؛ لأن (لولا) بمنزلة (هلا). وقوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ﴾ مرفوعان علىٰ الرد علىٰ (لولا) كقولك في الكلام: أوهلا يلقىٰ إليه كنزٌ "(١)، ويرىٰ العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ أن التحضيض حكمه حكم الاستفهام والأمر في جواز أن يكون له جواب، فيقول: "والنصب في (فيكون)؛ لأنه جواب (لولا) بمعنىٰ (هلا)

(١) ـ معاني القرآن لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء ـ تح/ محمد علىٰ النجار ـ (٢/ ٢٦٢، ٢٦٣) ـ ط/ ١٩٦٦م.

وحكمه حكم الاستفهام"[1]، ويقول ـ رحمه الله ـ كذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ٤٧]: "لولا" الأولىٰ امتناعية، وجوابها محذوفٌ، والثانية تحضيضيةٌ، وإحدىٰ الفائين للعطف، والأخرىٰ جواب (لولا) لكونها في حكم الأمر، من قبل أن الأمر باعثٌ علىٰ الفعل، والباعث والمحضض من وادٍ واحدٍ)[2].

وذهب البلاغيون المتأخرون هذا المذهب، وتأثروا بأسلافهم، فيقول الخطيب: "وأما العرض كقولك لمن تراه لا ينزل: (ألا تنزل تصب خيراً) أي إن تنزل، فمولدٌ من الاستفهام"[3]، ويقول العلامة الدسوقي عن العرض والتحضيض: "هما مولدان من الاستفهام، لأنهما لا يكونان إلا مع آلته، فيكونان داخلين فيه، فذكره مغن عنهما"[4]، وبناءً علىٰ ما سبق أرىٰ أن جملة الاستفهام الإنكاري التي ذكرت فيها كلمة (الصحف) جميعها جواب (لولا) التحضيضية التي لم يكن الطلب بها إلا للتعنت والمكابرة بهذا القول الشنيع، والمشركون بقولهم هذا للرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ قد خرجوا من

(١) ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل ـ لمحمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ـ (٣/ ٨٢) ـ تح/ يوسف الحمادي ـ الناشر/ مكتبة مصر ـ بدون تاريخ

(٢) ـ السابق: (٣/ ١٨٢، ١٨٣)

(٣) ـ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ت٧٣٧هـ) ـ ضمن شروح التلخيص: (٢/ ٣٣٠) ـ مطبعة / عيسىٰ البابي الحلبي

(٤) ـ حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد علىٰ تلخيص المفتاح: (٢/ ٣٣٠)

الدلالة الحقيقة للطلب إلي دلالة إضافية هي التعنت والمكابرة، وقد دل عليها السياق القرآني.

وفي هذا الجواب عن سؤال الكافرين أتت كلمة "الصحف" معرفةً بـ"أل"، وموصوفة بـ"الأولىٰ"، وتلك الصفة أفادت أن المراد بالصحف في هذا المقام هي الكتب السماوية السابقة، المنزلة علىٰ الأنبياء السابقين، وليس المراد بها صحف الأعمال التي يكتب فيها ما يصدر من بني آدم ـ عليه السلام ـ من خير أو شرٍ، وفي التعبير القرآني "الصحف الأولىٰ" مجاز مرسل[1] علاقته اللزومية؛ لأنه لما كان الكتاب مجموع صحفٍ أطلق الصحف علىٰ الكتب، ووجه اختيار (الصحف) هنا علىٰ (الكتب) أن في كل صحيفة من الكتب علمًا، وأن جميعه حواه القرآن، فكان كل جزءٍ من القرآن آية ودليلاً علىٰ صدق نبوة سيدنا محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ومن هنا يتضح أن سر التعبير في هذا المقام بـ(الصحف الأولىٰ) هو مناسبة جمعه لمجموع الرسالات السماوية السابقة، وقد تحدثت سورة "طه" عن أحد تلك الرسالات باستفاضة وهي رسالة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ والصحف

(١) ـ المجاز المرسل أحد أنواع المجاز اللغوي، وهو ما كانت علاقته غير المشابهة بين المعنىٰ المجازي والحقيقي. ينظر: المطول للسعد التفتازاني ـ رحمه الله ـ صـ: ٣٥٤ ـ ط/ أحمد كامل ١٣٣٠هـ، وسمىٰ مرسلاً لإرساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة بخلاف الاستعارة فإن علاقتها مخصوصة بالتشابه. ينظر: شرح حلية اللب المصون للشيخ أحمد الدمنهوري علىٰ الجوهر المكنون في المعاني والبيان والبديع للأخضري صـ: ١٤٧، وحاشية الشيخ مخلوف المنياوي بهامشه صـ١٤٧ ـ الناشر/ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ـ ط/ ١٤٥٧هـ ١٩٣٨م.

المنزلة عليه هي (التوراة)، وأنبأت سورة "طه" بعد استهلالها بمنة الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ رسوله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بإنزال الذكر الحكيم عن أحداثٍ جرت بين سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ وفرعون، وختمت الأحداث بخطاب المصطفىٰ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بقوله تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٨]، كما تحدثت عن قصة سيدنا آدم بعد ذلك، وعليه فكل ما فيه تثبيتٌ لفؤاد النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وتقوية لعزمه، وتحمله في سبيل إنجاح الدعوة الإسلامية مع كثرة الإساءات القولية والفعلية، يناسبه أن توصف الصحف هنا بـ(الأولىٰ) للإشارة إلي أن هذه الإساءات الشنيعة سبقت مثيلاتها في الرسالات السابقة، ومن هنا فألفاظ القرآن الكريم مناسبة لمعانيه أيما مناسبة.

❁❁❁❁❁

المطلب الثاني: مقام التهديد والتوبيخ

شاهد هذا المقام قوله تعالىٰ:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ [سورة المدثر:٣٨-٥٢].

جاءت كلمة "الصحف" هنا في معرض البيان الإلهي عن المجرمين الذين استحقوا الاستقرار في سَقر، وقد أجابوا أصحاب اليمين حين سألوهم قائلين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ "والمقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل، والمعنىٰ: ما حبسكم في هذه الدركة من النار؟ "[1] فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعةٍ، وهي واضحةٌ كما بينتها الآيات، ثم أتي استفهام آخر عقب الأمور الأربعة التي استحق المجرمون النار بسبب ارتكابها، والسؤال هو قوله –تعالىٰ–: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ ومقصود السؤال التوبيخ –أيضًا–، ويُؤيده الصوة البيانية التي رسمها القرآن الكريم لهم حيث شبههم في نفورهم عن آي الذكر الحكيم بالحُمر الوحشية النافرة، قال ابن عباسٍ ـ رحمه الله ـ: "الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك حال

(١) ـ مفاتيح الغيب ـ لفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ـ (٣١/ ٩) ـ الناشر/ دار الغد العربي ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

هؤلاء المشركين إذا رأوا محمدًا ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد. قال صاحب الكشاف: وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا ترىٰ مثل حمير الوحش واضطرادها إذا خافت من شيءٍ"(١).

هذا هو السياق الذي أتت فيه كلمة "الصحف" وهو سياق ينبئ عن سوء المصير، والمآل المبير، حيث تعانقت فيه الصورة التوبيخية الناتجة من الاستفهام بـ"ما" مع الصورة التشبيهية المؤكدة لبلههم، وغباوتهم في عدم الاستماع للنصح والإرشاد، وهذا من باب تعنتهم وكبرهم، ومحاولتهم تعجيز رسول الله ـ صلىٰ الله عليه سلم ـ فيما طلبوه منه، وفي ختام هذا السياق جاءت كلمة (الصحف) يقول تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ والصحف المنشرة المقصود منها أحد أمرين: الأول: صحفٌ مكتوب فيها أوامر باتباع الرسول الكريم، والثاني: صحف مكتوب فيها البراءة من النار، فأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وأمثالهما من مشركي مكة الذين سماهم الله ـ تعالىٰ ـ بالمجرمين في هذا السياق؛ زيادة في التوبيخ والتشنيع بهم قالوا لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: "لا نؤمن بك حتىٰ تأتي كل واحدٍ منا بكتاب من السماء عنوانه: من رب العالمين إلي فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك، وقيل: إن كان محمدٌ صادقًا فليصبح عند رأس كل رجلٍ منا صحيفةٌ فيها براءة من النار...)(٢)، وتلك الأقوال لم يكن هدف طلبها الهداية، بل التعنت كما أوضحه سياق الآيات، ويقول الخازن

(١) ـ السابق: (٣١/ ١١)

(٢) ـ مفاتيح الغيب: (٣١/ ١١، ١٢)

(ت٧٢٥هـ) ـ رحمه الله ـ: "وقوله (منشرة) غير مطوية أي طرية لم تطو، بل تأتينا وقت كتابتها، وهذا من زيادة تعنتهم)[١].

و(الصحف) هنا جاءت نكرة للدلالة علىٰ التعظيم والتكثير، أما التعظيم فلأنها ستأتي من الله ـ جل شأنه ـ، وأما التكثير؛ فلأنهم طلبوا أن يأتي من السماء صحيفة لكل واحد منهم، وما أكثرهم حين ذاك، ولهذا أوثر الجمع دون الإفراد والتثنية، وقد وصفت (الصحف) هنا بنكرة أيضًا، وتلك الصفة هي قوله –تعالىٰ– (منشرة) بتشديد الشين، جاء في روح البيان قوله: "و(صحفًا) مفعولٌ ثانٍ لـ(يؤتىٰ)، والأول ضمير كل، ومنشرة صفة لـ(صحف) جمع صحيفة بمعنىٰ الكتاب... و(صحفٌ منشرة) شدد للكثرة)[٢]، ولما كان المقام الذي وردت فيه الصحف مقام تعنتٍ ناسب أن يكون الرد عليهم متسمًا بالردع والزجر؛ ليكفوا عما هم عليه من كبر، فقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: "كلا" ردعٌ لهم عن تلك الإرادة، وزجرٌ عن اقتراح الآيات"[٣].

❁❁❁❁❁

(١) ـ لباب التأويل في معاني التنزيل ـ لعلاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ـ (٤/ ٤٦٣) ـ الناشر/ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ـ ط/ الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

(٢) ـ روح البيان ـ لإسماعيل حقي بن مصطفىٰ الاستانبولي الحنفي الخلوتي (ت١١٢٧هـ) (١٠/ ٢٤٢) ـ الناشر/ دار الفكر ببيروت.

(٣) ـ مفاتيح الغيب: (٣١/ ١٢)

المطلب الثالث: مقام العتاب

العتاب أمارة الود والمحبة، وليس كما يعتقد البعض أنه إنكار وتوبيخ بمعنىٰ "التعيير والتقريع علىٰ أمرٍ قد وقع"(١) أي في الماضي أو "علىٰ أمرٍ خيف وقوعه في المستقبل، بأن كان المخاطب بصدد أن يوقعه"(٢)، والعتاب في اللغة اللوم، يقول ابن منظور: "أصل العتب الشدة، وعاتبه معاتبة وعتابًا كل ذلك لامه"(٣)، هذا هو العتاب في ظاهره، لكنه يحمل في طياته اللطف واللين والرحمة، وهذا ما دل عليه الرازي فقال: "العتاب مخاطبة الإدلال، والإشفاق، وحقيقة العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة"(٤)، ومن خلال هذا المعنىٰ ندرك أن الله ـ تعالىٰ ـ خاطب الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ في هذا المقام خطابًا مجازيًا لا حقيقيًا، وكلمة (الصحف) وردت في هذا المقام، والمراد بها القرآن الكريم علىٰ وجه الخصوص.

يقول تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [سورة عبس: ١-١٦].

---

(١) ـ مواهب الفتاح علىٰ تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (ت١١١١هـ) ضمن شروح التلخيص: (٢/ ٣٠٠) ـ مطبعة الحلبي

(٢) ـ حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد ـ ضمن شروح التلخيص: (٢/ ٣٠٠).

(٣) ـ لسان العرب: مادة (عتب).

(٤) ـ المصباح المنير: مادة عتب

ولهذا السياق القرآني سبب نزول، يقول النيسابوري: "قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ وهو ابن أم مكتوم، وذلك أن النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهلٍ بن هشام، وعباس بن عبدالمطلب، وأبيًا، وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلي الله ـ تعالىٰ ـ ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم، وقال: يا رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مقبلٌ علىٰ غيره، حتىٰ ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان، والسِّفْلَة، والعبيد، فعبس رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وأعرض عنه، وأقبل علىٰ القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله ـ تعالىٰ ـ هذه الآيات، فكان رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي)[1]. ومقام العتاب ـ هنا واضحٌ، وهو أمارة المحبة والمودة، هذا العتاب المذكور في هذه السورة وغيرها من آيات الذكر الحكيم دليلٌ علىٰ إعجاز القرآن الكريم، وأنه كلام رب العالمين، ومن المناسبة الدالة علىٰ إعجازه أن ربنا ـ جل شأنه ـ أثبت هذا الموقف العتابي ـ في صحفه المكرمة.

و(الصحف) في هذا السياق اختلف فيها على قولين:

(١) ـ أسباب النزول للواحدي النيسابوري للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ـ تح/ السيد الجميلي ـ صـ: ٣٧٩

ـ الناشر/ دار الريان للتراث ـ بدون تاريخ.

الأول: "إنها صحفٌ منتسخةٌ من اللوح، مكرمةٌ عند الله ـ تعالىٰ ـ مرفوعةٌ في السماء السابعة، أو مرفوعة المقدار، مطهرة عن أيدي الشياط.

القول الثاني: إنها صحف الأنبياء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[الأعلىٰ: ١٨، ١٩]يعني أن هذه التذكرة مثبتةٌ في صحف الأنبياء المتقدمين، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ، وقيل: هم القراء"(١).

ومعنى هذا أن الصحف علىٰ القول الثاني كناية عن القرآن الكريم الذي هو ختام الصحف السابقة، وهي متعلقٌ من المتعلقات، حيث إنها اسم مجرور بـ(في) متعلق بخبر (إن) وهو تذكرةٌ، وجاءت نكرة للتعظيم، ودل علىٰ ذلك وصفها بالتكريم في قوله تعالىٰ: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾أي رفيعة القدر، وبالطهر كناية عن أن يمسها الشياطين، وقد أثنىٰ الله ـ تعالىٰ ـ في هذا المقام بأبلغ الصفات، ومدحه بأشرف العبارات؛ إذ بين أنه صحفٌ للتذكرة والاتعاظ.

❁❁❁❁❁

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٣١/ ٢٢٠).

المطلب الرابع: مقام التقريع

من أهداف هذا المقام في الذكر الحكيم أنه يفضح عوار الكافرين في الفكر والاعتقاد، ويبين سلامة ما عليه المسلمون من فكرٍ سليم، واعتقاد مستقيم، وجاءت كلمة (الصحف) في هذا المقام لبيان ما اشتملت عليه من أحكام مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. يقول تعالىٰ:﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [سورة البينة: ١-٥].

يقول العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ عن سبب نزول السورة: "كان الكفار من الفريقين: أهل الكتاب، وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتىٰ يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، وهو محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فحكىٰ الله ـ تعالىٰ ـ ما كانوا يقولونه"(١).

ونرىٰ في هذا المقام الذي يخبر الله ـ تعالىٰ ـ فيه عن حال الكافرين، والغرض منه التقريع كما هو ظاهرٌ امتنان الله ـ تعالىٰ ـ بالرسالة علىٰ سيدنا محمد ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فقال مكنيًا عنه بصفة الرسالة تعظيمًا لشأنه، وعلوًا لقدره، لأنه رسول من الله ـ تعالىٰ ـ لا من أحد سواه، ورسولٌ نُكر للتعظيم، وهو خبر لمبتدأٍ محذوفٍ تقديره: (هو) وهو مسند إليه محذوف،

(١) ـ الكشاف: (٤/ ٦١٨).

وسر حذفه هو الاختصار، وللاعتناء بشأن المذكور، كما نرىٰ أن الفصل لكمال الاتصال جليًا بين قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ فالجملة الثانية بدل اشتمال من الجملة الأولىٰ، كما ألاحظ أن بين قوله تعالىٰ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ شبه كمال الاتصال، حيث إن الأولىٰ أثارت سؤالاً بدلالة الفحوىٰ هو: ما يفعل هذا الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ؟، فقيل جوابًا عن هذا السؤال المقدر: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

و (الصحف) هنا مفعولٌ به للفعل (يتلو) ونكر المفعول للتعظيم، وقد تأكدت تلك الدلالة بالوصفين اللذين وصف بهما المفعول، فـ(الصحف) وصفت أولاً بأنها (مطهرةٌ)، ووصفت ثانيًا بأنها (فيها كتب قيمةٌ)، والصحف المطهرة كناية عن القرآن الكريم، وتلك الكناية أفادت علو مكانته، ونبهت علىٰ عظيم شأنه، ويقول الرازي ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن: "واعلم أن المطهرة، وإن جرت نعتًا للصحف في الظاهر، فهي نعتٌ لما في الصحف، وهو القرآن"(١)، ويمكن أن يكون التطهير كناية عن خلوها من الاعتقادات الفاسدة، والأحكام الجائرة.

ومن خلال ما سبق نستفيد أن المراد بالصحف في سورة (البينة) هي القرآن الكريم، وعبر هنا بـ(تلاوتها) دون قراءتها لمناسبة سياق الآيات؛ إذ السورة تحكي مخالفة الكفار لأقوالهم، وأهل الكتاب لما في كتبهم من

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٣٢/ ٥٥٤).

وجوب اتباع النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ حين يبعث، فلما بعث استنكفوا، ولم يتبعوا، وعليه فإن التلاوة فيها قراءة واتباع وعمل، وليس في القراءة اتباع، كما أن التلاوة تناسب الجمع الذي في (الصحف)، والقراءة تكون للمفرد والجمع، يقول الراغب ـ رحمه الله ـ: " تلاه: تبعه متابعةً ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم، وتارة بالاقتداء في الحكم... "(١)

ويقول أبو هلال العسكري ـ رحمه الله ـ: " التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدًا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة، يقال: قرأ فلان اسمه، ولا يقال: تلاه؛ وذلك أن أصل التلاوة اتباع الشيء الشيء، يقال: تلاه إذا تبعه، فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضـًا، ولا تكون في الكلمة الواحدة؛ إذ لا يصح فيها التلو "(٢)

هناك ـ إذن ـ فرق بين تلاوة الصحف وقراءتها، والسياق هو الذي يوضح اللفظ المناسب للمعنىٰ، وبهذا يتضح أن العلاقة بين تلاوة الصحف المطهرة وقراءتها علاقة عموم وخصوص، إذ القراءة عامة، والتلاوة خاصة بمعنىٰ أنها خاصة بالكتب السماوية فحسب، يقول الراغب ـ رحمه الله ـ: " والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام؛ لما فيها من أمرٍ ونهيٍ، وترغيب وترهيبٍ، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوةٍ قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن في شيءٍ إذا قرأته وجب عليك اتباعه "(٣)

(١) ـ مفردات ألفاظ القرآن: مادة (تلو)

(٢) ـ الفروق اللغوية: مادة (تلو)

(٣) ـ مفردات ألفاظ القرآن ـ مادة (تلو).

تأكد ـ إذن ـ أن سر التعبير بتلاوة (الصحف) دون قراءتها ـ في هذه السورة هو مناسبة سياق السورة؛ إذ المقصود منها اتباع ما فيها من أحكام وتشريعات، وأوامر ونواهٍ، وقد دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، والكتب هنا بمعنىٰ الأحكام التي اشتملت عليها الصحف المطهرة كأحكام الأحوال الشخصية من لعان، وظهارٍ، وقذف، ورجم، وأحكام الأحوال الاجتماعية مثل: المواريث، وغير ذلك، ووصفها بالقيمة فيه دلالة بلاغية وهي بلوغها الكمال والعدل، حيث إن معنىٰ القيمة هو المستقيمة الشأن.

ويمكن أن يكون سر التعبير بتلاوة (الصحف) هو الإخبار عن تلاوة المضمون لا المكتوب؛ لأنه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كان أميًا، والقراءة تستلزم قراءة المكتوب بنصه، يقول الشيخ سليمان الجمل ـ رحمه الله ـ: "قوله: "يتلو مضمون ذلك" أي مضمون المكتوب في الصحف، وهو القرآن، لا نفس المكتوب؛ لأنه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ كان يتلو القرآن عن ظهر قلبٍ، ولم يكن يقرأه من كتابٍ؛ لكنه لما كان يتلو مضمون الكتاب في الصحف صار كأنه يقرأ من كتاب"(١).

❁❁❁❁❁

(١) ـ حاشية الشيخ سليمان الجمل المسماة بـ"الفتوحات الإلهية" علىٰ الجلالين: (٤/ ٥٩٤) ـ ط/ الأولىٰ ١٣٠٢هـ

المطلب الخامس: مقام أهوال يوم القيامة

عبر القرآن الكريم عما سوف يحدث للكون من تبديلٍ وتغيير يوم القيامة، وهذا التبديل والتغيير يلحق الكونين العُلوي، والسُفْليَّ علىٰ السواء، وجاء البيان عن ذلك في مواطن عديدة منها هذا الموطن الذي ذكرت فيه كلمة (الصحف) مرادًا بها السجلات التي يسجل فيها أعمال العباد في دنياهم، وذلك في سورة التكوير.

يقول تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [سورة التكوير: ١-١٦].

تصور هذه الآيات مشهدًا من مشاهد أهوال يوم القيامة تصويرًا بديعًا، مستهل بـ(إذا) الشرطية التي تأتي فيما هو مقطوعٌ بوقوعه(١)، وهي للشرط في الاستقبال، وقد تكررت هنا مع العلامات الدالة علىٰ التغيير والتبديل للدلالة علىٰ وقوعه وحدوثه، وأنه لا شك فيه، وجواب (إذا) قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾، والمراد بالصحف هنا صحف الأعمال، وهي مسند إليه معرف بـ(أل)؛ لإرادة الحقيقة أو إرادة الجنس أي حقيقة الصحف،

(١) ـ ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني، ومعه البغية للشيخ عبدالمتعال الصعيدي: (١/ ١٤١) ـ الناشر/ مكتبة الآداب ـ ط/ ١٩٩٩م

فالمعهود أن الصحف هي ما يكتب فيها، والمسند محذوف تقديره (ظهرت)، وسر حذفه ضيق المقام، ونشرت صفة للصحف، وقرأت بالتخفيف والتشديد، يقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ: "نشرت قرئ بالتخفيف والتشديد، يريد صحف الأعمال تطوىٰ صحيفة الإنسان عند موته، ثم تنشر إذا حوسب"(١).

❁❁❁❁❁

(١) ـ الكشاف: (٤/ ٥٥١)

المطلب السادس: تصحيح الفهوم الخاطئة، والاعتقادات الباطلة

لاريب أن حياة الناس يشوبها كثيرٌ من الأخطاء الفكرية والعقلية، وهذا نابع من اتباعهم لأهوائهم تارة، ومعلوماتهم القاصرة أحيانًا أخرىٰ، دون أن يكون منهم تدبر أو تعقل أو رجوع للحق والعدل، وعني البيان القرآني بتصحيح هذا الجانب، أعني تصحيح الفهم الخطأ للنص أو الرأي، وعبر عن ذلك بالأسلوب الذي يستثير النفس، ويحثها علىٰ الانتباه وهو أسلوب الاستفهام، وكلمة (الصحف) محل الدراسة أتت في سياق قرآني يعنىٰ بإظهار هذا المقام، وذلك في قوله –تعالىٰ– من سورة النجم.

يقول –تعالىٰ–: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النجم:٣٣-٤٢].

لهذا السياق القرآني الذي وردت فيه كلمة (الصحف) سبب نزول، وقد اختلف العلماء حول من نزلت فيه الآيات، وذكر العلامة الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) فيمن نزلت، فقال: "قال ابن عباسٍ، والسدي، والكلبي، والمسيب بن شريك نزلت في عثمان بن عفان كان يتصدق، وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبدالله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع يوشك أن لا يبقىٰ لك شيئًا؟ فقال عثمان: إن لي ذنوبًا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وأرجو عفوه، فقال له عبدالله: أعطني ناقتك برحلها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك

عن بعض ما كان يصنع من الصدقة، فأنزل الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾فعاد عثمان إلي أحسن ذلك وأجمله.

وقال مجاهد، وابن زيدٍ نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علىٰ دينه، فعيره بعض المشركين، وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئًا من ماله، ورجع إلي شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فأعطىٰ الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله ـ تعالىٰ ـ هذه الآية"(١).

وهذا الذي ذكره النيسابوري من أن الآيات نزلت في سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ لا يليق بأحد المبشرين بالجنة، يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: "وهذا قولٌ باطل لا يجوز ذكره؛ لأنه لم يتواتر ذلك، ولا اشتهر، وظاهر حال عثمان ـ رضي الله عنه ـ يأبىٰ ذلك"(٢)

وقيل إن الآيات نزلت في مؤمنٍ من المهاجرين أغراه النضر بن الحارث حتىٰ ارتد عن دينه، "قال الضحاك: هو النضر بن الحارث أعطىٰ خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتىٰ ارتد عن دينه، وضمن عنه أن يحمل عنه

(١) ـ أسباب النزول ـ صـ: ٣٣٥، ٣٣٦

(٢) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٢٧)

مأثم رجوعه"[1] ورجح الألوسي ـ رحمه الله ـ أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، فقال بعد أن عدد الأقوال فيمن نزلت: "والأول هو الأشهر الأنسب لما بعده من قوله ـ سبحانه ـ ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ إلي آخره"[2]

ومن العلماء المعاصرين من استبعد أن تكون الآيات نزلت في سيدنا عثمان بن عفان ـ رضىٰ الله عنه ـ أو الوليد بن المغيرة، وخالف الآلوسي في رأيه فقال: "ونحن نستبعد أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يفعل ذلك، حتىٰ وإن قيل: إن ذلك وقع منه في أو عهده بالإسلام، كما نستبعد أن يكون صاحبها واحدًا من المشركين؛ لأنهم لا يرجون مغفرة ذنوبهم إلا بشفاعة أصنامهم، والمرجح أن صاحبها مؤمن يجهل أن الله لا يحمل أحدًا إثم آخر، بل كل نفس عنده بما كسبت رهينةٌ، والعبرة لا بخصوص السبب، بل بعموم اللفظ كما قال الأصوليون"[3]

من كل ما سبق يتبين أن السياق الذي وردت فيه كلمة (الصحف) سياق تصحيح فهم خطأ، واعتقاد باطلٍ، أبطلته الشرائع السماوية السابقة، وذكر الزمخشري ـ رحمه الله ـ أول من أبطل هذا المعتقد من الأنبياء السابقين فقال: "وعن الهزيل بن شرحبيل: كان بين نوحٍ وبين وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة

---

(١) ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني ـ لشهاب الدين الآلوسي ـ تح/ علىٰ عبدالباري عطية ـ (١٤/ ٦٤) ـ الناشر/ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٥هـ.

(٢) ـ السابق: نفس الصفحة

(٣) ـ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ـ أد/ عبدالعظيم المطعني ـ (٤/ ١٨٣) ـ الناشر/ مكتبة وهبة ـ ط/ الثالثة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م

غيره، ويقتل بأبيه، وابنه، وعمه، وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده، فأول من خالفهم إبراهيم"(١).

بلاغة التعبير بالصحف في هذا المقام

إن المراد بـ "الصحف" في هذا المقام هي الكتب السماوية المنزلة علىٰ النبيين السابقين سيدنا إبراهيم، وموسي ـ عليهما السلام ـ، وتدل الهيئة التي أتت عليها كلمة (صحف) هنا علىٰ التشريف والتعظيم، حيث جاءت مجرورة بـ (في)، ومضافة إلي نبي الله سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ، وعليه فـ (الصحف) متعلق من متعلقات الفعل (ينبأ)، والنبأ يجيء في القرآن الكريم للدلالة علىٰ الأمر العظيم.

ويضاف إلي الدلالة السابقة دلالة أخرىٰ تستفاد من تنكير (الصحف) وهي الدلالة علىٰ كثرة الصحف، يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: "صحف موسىٰ وإبراهيم، هل جمعها لكونها صحفًا كثيرة، أو لكونها مضافة إلي اثنين كما قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم: ٤]؟، الظاهر أنها كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾[الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وكل لوحٍ صحيفةٌ)(٢).

ويدور بالذهن سؤال عن سر العدول بـ(الصحف) عن توراة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ حيث لم يكن التعبير القرآني: أم لم ينبأ بما في توراة موسىٰ، وصحف إبراهيم، لأنه من المشتهر أن المنزل علىٰ سيدنا موسىٰ هو التوراة،

(١) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٤)

(٢) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٣٠)

ولعل السر في هذا العدول هو مراعاة أصل الكتب المنزلة، حيث إن كل كتابٍ سماوي إنما أصله صحفٌ كثيرة نزلت واحدة تلو الأخرىٰ، وضم بعضها إلي بعض حتىٰ صارت كتابًا يحتوي علىٰ أصول الدين وشرائعه، فكأنه ـ هنا ـ روعي الأصل تناسبًا وتناغما مع السورة الكريمة التي حدثت فيها رحلتي الإسراء والمعراج، وتوحدت فيها الرسالات، وقد يكون إيثار التعبير بالصحف عن التوراة من باب التغليب(١)، فسميت توراة موسىٰ ـ عليه السلام ـ صحفًا؛ لأنها جاءت في صحبة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ومن المعلوم أن المنزل عليه هو (الصحف)، وإن لم تذكر في الآية الكريمة؛ لأنه مدلول عليها بقرينة مقالية، وهناك رأي يقول: إن سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ أعطي قبل التوراة عشر صحفٍ، واستند لحديث طويل(٢)، ولكن الشيخ ناصر

(١) ـ التغليب هو أن يعطي أحد المصطحبين أو المتشاكلين حكم الآخر. ينظر: مواهب الفتاح علىٰ تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) ـ ضمن شروح التلخيص: (٢/ ٥١) ـ مطبعة الحلبي.

(٢) ـ ذكر ابن حبان ـ رحمه الله ـ (ت٣٥٤هـ) حديثًا طويلاً عن سيدنا أبي ذرٍ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ جاء فيه: " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَهُ اللهُ؟، قَالَ: «مِائَةُ كِتَابٍ، وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، أُنْزِلَ عَلَىٰ شِيثٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً، وَأُنْزِلَ عَلَىٰ أَخْنُوخَ ثَلَاثُونَ صَحِيفَةً، وَأُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَشَرُ صَحَائِفَ، وَأُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ قَبْلَ التَّوْرَاةِ عَشَرُ صَحَائِفَ، وَأُنْزِلَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْقُرْآنُ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَتْ صَحِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ؟، قَالَ: «كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَىٰ الْمَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ، وَعَلَىٰ الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَىٰ عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي

صُنْعِ اللهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَعَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَىٰ شَأْنِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَىٰ؟، قَالَ: «كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا: عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هُوَ يَضْحَكُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَىٰ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ثُمَّ لَا يَعْمَلُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي:، قَالَ: «إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ، فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيَذْهَبُ بِنُورِ الْوَجْهِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ عَنْكَ، وَعَوْنٌ لَكَ عَلَىٰ أَمْرِ دِينِكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي، قَالَ: «أَحِبَّ الْمَسَاكِينَ وَجَالِسْهُمْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: «انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَكَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَكَ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تُزْدَرَىٰ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: «قُلِ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: «لِيَرُدَّكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَجِدْ عَلَيْهِمْ فِيمَا تَأْتِي، وَكَفَىٰ بِكَ عَيْبًا أَنْ تَعْرِفَ مِنَ النَّاسِ مَا تَجْهَلُ مِنْ نَفْسِكَ، أَوْ تَجِدَ عَلَيْهِمْ فِيمَا تَأْتِي» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ صَدْرِي، فقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ». ينظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ـ المؤلف / محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت٣٥٤هـ) ـ (٢/ ٧٦) ـ تح/ شعيب الأرنؤوط ـ الناشر/ مؤسسة الرسالة – بيروت ـ ط/ الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

الدين الألباني ـ رحمه الله ـ ضعفه جدًا[1]، لهذا أميل إلي الرأي القائل بأن صحف موسىٰ ـ عليه السلام ـ " كناية عن التوراة، وسر التعبير بها يُسْرُ إضافتها إليه)[2].

"الصحف" قرينة مقالية على الحذف

في ذكر كلمة "صحف" في جانب سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ دلالة علىٰ حذفها في جانب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث لم يأت النص القرآني هكذا: أم لم ينبأ بما في صحف موسىٰ وصحف إبراهيم، وإنما أتي علىٰ ما يتلىٰ به إلي يوم القيامة، والداعي البلاغي لحذف (الصحف) في جانب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو انصراف الذهن إلي العلم به، والحذف ـ هنا أبلغ من الذكر؛ لكون ما في صحف النبيين الكريمين شيءٌ واحد، وأصل واحدٌ، ومن مشكاة واحدةٍ.

ومما سبق يستفاد أن سر العطف بالواو بين الآيتين الكريمتين:قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ هو التوسط بين الكمالين مع وجود الجامع[3]، فالجملتان متفقتان في الخبرية، وبين النبيين

(١) ـ ينظر: ضَعيفُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب ـ المؤلف / محمد ناصر الدّين الألباني ـ (٢/ ٨٣) ـ الناشر/ مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

(٢) ـ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ـ أد/ عبدالعظيم المطعنىٰ: (٤/ ١٨٣)

(٣) ـ التوسط بين الكمالين ألا يكون بين الجملتين أحد الكمالين، ولا شبه أحدهما، فيتحقق بين الجملتين إذا اتفقتا خبراً وإنشاءً لفظًا ومعنىً أو معنىً فقط. ينظر: المطول للسعد: ٢٦١، وشروح التلخيص: ٣/ ٦٩، ٧٠

الكريمين تماثلٌ[1] حيث إنهما متفقان في الإنسانية، فكل منهما إنسانٌ، كما أنهما متفقان في النبوة والرسالة، بجانب كونهما ـ عليهما السلام ـ من أولىٰ العزم من الرسل.

ومما هو حقيق بالنظر في هاتين الآيتين تدبر سر تقديم سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ مصحوبًا بذكر صحفه علىٰ سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ومن خلال النظر فيما ذكره العلماء حول سر هذا التقديم تبين ـ لي ـ تعدد جهات نظرهم، فالفخر الرازي ـ رحمه الله ـ يقول في هذا: "وأما ههنا فقد قلنا: إن الكلام مع أهل الكتاب، وهم اليهود فقدم كتابهم، وإن قلنا الخطاب عامٌ، فصحف موسىٰ كانت كثيرة الوجود، فكأنه قيل لهم: انظروا فيها تعلموا أن الرسالة حقٌ، وأرسل من قبل موسىٰ رسلٌ، والتوحيد صدقٌ، والحشر واقعٌ، فلما كانت صحف موسىٰ عند اليهود كثيرة الوجود قدمها، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدةً، وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسىٰ فأخر ذكرها"[2]، ويرىٰ الزركشي (ت٧٩٤هـ) ـ رحمه الله ـ أن تقديم سيدنا موسىٰ هنا لأمرين: "أحدهما: أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك، وكانت صحف موسىٰ منتشرة أكثر انتشارًا من صحف إبراهيم، وثانيهما:

---

(١) ـ التماثل جامع عقليٌ بين المسند والمسند إليه، والمثلان هما المتساويان في الذاتيات، ولذلك حدهما أصحابنا بأنهما موجودان مشتركان في الصفات النفسية، ومن لازم ذلك أنه يجب لكل منهما، ويمتنع، ويجوز ما يجب للآخر، وما يمتنع، وما يجوز. ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي: ضمن شروح التلخيص ـ (٣/ ٩٠)

(٢) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٣١)

مراعاة رؤوس الآي"[1]، ومن الجدير بالذكر أن النبيين الكريمين قرنا في مقام الإخبار والإنذار في سورة الأعلىٰ، تلك السورة التي قُدم فيها سيدنا إبراهيم علىٰ سيدنا موسىٰ، فما سر تقديم سيدنا موسىٰ هنا، وتأخيره هناك؟

إن السياق هو الذي تنبع منه دلالات التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغير ذلك من الأحوال البلاغية التي يأتي عليها الكلام العربي، وعليه ففي سورة النجم "قدم موسىٰ ـ عليه السلام ـ في هذه الآية، وأخر في سورة الأعلىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلىٰ: ١٩] وأقول: الترتيب في سورة الأعلىٰ من وجهين: الأول: أن إبراهيم أفضل من موسىٰ، والثاني: لسبقه في الوجود، وأما ههنا، فإن الكلام مع أهل الكتاب، وهم اليهود فقدم كتابهم من أجل ذلك وإذا كان الخطاب ليس مع أهل الكتاب، بل هو عامٌ لكل المشركين، فالتقديم هنا لكون (صحف) موسىٰ أقرب زمانًا وأشهر ذكرًا، ولمخالطة المشركين لليهود، فكانوا بها أعرف، وذكرها لديهم أشهر"[2] انتهىٰ الحديث عن هذا المقام، وأنتقل منه إلي مقام آخر بعنوان: الإخبار والإنذار.

❁❁❁❁❁

(١) ـ البرهان في علوم القرآن ـ لأبي عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ـ تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ (٣/ ٢٣٩) ـ الناشر/ دار إحياء الكتب العربية لعيسىٰ الحلبي ـ ط/ الأولىٰ ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

(٢) ـ دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم ـ دراسة تحليلية ـ د/ منير محمود المسيري ـ صـ: ٦٢٦ ـ الناشر/ مكتبة وهبة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

المطلب السابع: مقام الإخبار والإنذار

من المقامات القرآنية التي بينت الأصل المشترك بين دين سيدنا محمدٍ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ والأديان السماوية الأخرىٰ مثل دِين النبيين الكريمين إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ مقام الإخبار والإنذار، وسياق هذا المطلب يخبر عن اشتراك الأديان السماوية في أصولها، وينذر من يخالف عنها، وسورة الأعلىٰ إحدىٰ السور القرآنية التي ورد فيها هذا المقام، وقد ذكرت فيها كلمة "الصحف" مرتين، وصفت بصفةٍ في الأولىٰ، وأضيفت في الثانية، وسياقها القرآني هو:

يقول تعالىٰ: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعلى: ١٤-١٩].

تخبر هذه الآيات الكريمات بأسلوب مؤكدٍ بـ(قد) التحقيقية التأكيدية أن الفلاح كله في تطهير النفس ظاهرًا وباطنًا، وفي المداومة علىٰ ذكر الله ـ تعالىٰ ـ، وفي المحافظة علىٰ الصلاة المفروضة، ثم تنذر من يؤثر الحياة الفانية الدنية، علىٰ الحياة الأخروية السنية، ثم يعقب ذلك إشارة إلي أن هذا الإخبار والإنذار مذكور في الصحف الأولىٰ التي نزلت علىٰ الأنبياء السابقين، وفي ذلك دلالة علىٰ اتحاد الكتب السماوية في أصولها، وأن الاختلاف ما هو إلا في الفروع فحسب.

وإذا تأملنا الآيتين اللتين ذكرت فيهما كلمة (الصحف) نجد أن بينهما اتصالا داخليا، وقد ترتب عليه انفصال في الظاهر، والانفصال بينهما لأحد أمرين: الأول: كمال الاتصال، والثاني: شبه كمال الاتصال، وكمال الاتصال

ـ يتحقق ـ إذا أعربنا الجملة الثانية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾عطف بيان للجملة الأولىٰ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾، وهذا ما قرره فخر الدين الرازي(١)، وشبه كمال الاتصال يتحقق إذا قدرنا أن الجملة الأولىٰ تثير سؤالاً فحواه: ما هي الصحف الأولىٰ؟، وعليه تكون الجملة الثانية ﴿ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ جواب عن هذا السؤال المقدر.

أما فيما يتعلق بتقديم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ علىٰ سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ هنا في هذه السورة، فقد ذكر الإمام البقاعي لفتة جميلة إضافةً إلىٰ ما ذكره العلماء في المطلب السابق، إذ يقول: "صحف إبراهيم قدمه؛ لأن صحفه أقرب إلي الوعظ كما نطق به حديث أبي ذرٍ ـ رضىٰ الله عنه ـ وموسىٰ ختم به؛ لأن الغالب في كتابه الأحكام، والمواعظ فيها قليلةٌ، وفيها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي أعظمها البشارة بمحمدٍ ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ)(٢).

وأميل إلي ما ذكره العلامة البقاعي ـ رحمه الله ـ لوجاهته، وموافقته للواقع؛ لأن بيان النبوة المطهرة ناطق لأهل الكتاب بأن الذي أنزل عليه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ توافق أحكامه، وتشريعاته وأصوله، أحكام وتشريعات وأصول الكتاب الذي أنزل علىٰ سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ ومن أدلة هذا

---

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٣١/ ٣٦٨)

(٢) ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ لـ: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ) ـ (١١/ ٤٠٨) ـ الناشر/ دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة

التوافق حديث الرجم في صحيح البخاري، قال ابن عمر ـ رضىٰ الله عنه ـ: "إن اليهود جاءوا إلي رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ، ذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبدالله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده علىٰ آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، قال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدقت يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فرجما، فرأيت الرجل يحني علىٰ المرأة يقيها الحجارة"[1]، فهذه الحادثة التي رآها النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ رأي عين في المدينة المنورة، وسأل اليهود فيها عن حكم الرجم في التوراة سؤالاً مجازيًا غرضه البلاغي أن يقروا هم بما فيها أظهرت التوافق بين التوراة والقرآن في الأحكام، ومنها حد الرجم.

والتقديم ـ هنا ـ قد يكون مراعاة للفاصلة، والفاصلة ورائها ملحظ بيانيٌ يتناسب مع جو السورة الكريمة، فالسورة فيها عبر وعظات ناطقات بقدرة الله ـ تعالىٰ ـ المطلقة، حيث تحدثت عن قدرته في الخلق، والتقدير، والإنبات، ثم الوعظ والتذكير بفلاح من طهر نفسه، وخيبة من اتبع هواه، وآثر دنياه علىٰ

(١) ـ صحيح البخاري المسمىٰ بالجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وسننه وأيامه ـ باب قوله تعالىٰ: "يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهو يعلمون" [البقرة: ١٤٦] ـ (٤/ ٢٠٦) تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر ـ الناشر/ دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ

أخراه، والعبر والعظات من روح صحف سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ذكر الإمام البقاعي آنفًا، ولهذا: "قيل: إن في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظًا للسانه، عارفًا بزمانه، مقبلاً علىٰ شأنه"(١) ولهذا تقدم ذكر سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

سر تخصيص صحف موسىٰ وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ دون سائر الأنبياء في سورتي النجم والأعلىٰ.

لعل تخصيص صحف النبيين الكريمين بالذكر راجع إلي مخالطة المشركين لليهود، وقربهم منهم، وشريعة سيدنا موسىٰ أقرب الشرائع إليهم، وبالنسبة لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإنه أرسل إلي العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام، وهذا يومئ إلي أن صحفهما باقية ومعروفة عند المشركين.

ويبين العلامة أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) سرًا آخر فيقول: "خص هذين النبيين ـ عليهما السلام ـ لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده، فأول من خالفهم إبراهيم، ومن شريعته إلي شريعة موسىٰ ـ صلىٰ الله عليهما وسلم ـ كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره"(٢)

❁❁❁❁❁

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٣١/ ٣٦٨).

(٢) ـ البحر المحيط في التفسير ـ لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفىٰ: ٧٤٥هـ) ـ تح/ صدقي محمد جميل: (١٠/ ٢٣) ـ الناشر: دار الفكر– بيروت ـ ط/ ١٤٢٠هـ.

المبحث الثاني:
مقامات اتفاق القرآن الكريم لما جاء في صحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ من مبادئ أساسية.

يتناول هذا المبحث تحليل الآيات البينات التي وردت في صحف سيدنا إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ وحكاها القرآن الكريم في سورتي النجم والأعلىٰ بلفظهما ومضمونهما، وقيل بالمضمون فقط وهو الراجح كما سيأتي بيانه، ويكون ذلك في مطلبين، ومن الإحسان بالبحث التنبيه إلي أنه سبق تناول كلمة الصحف في سورتي النجم والأعلىٰ في مقامي تصحيح الفهوم الخاطئة، والإخبار والإنذار في المبحث السابق علىٰ وجه الإجمال دون التعرض البتة من قريب أو بعيد للآيات البينات التي فصل القرآن ذكرها، وأخبر أنها موجودة في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ، وسر هذا التنبيه إيضاح أن الآيات في هذا المبحث غير الآيات في المبحث السابق.

المطلب الأول:

بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسى ـ عيهما السلام ـ في سورة النجم.

يقول تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة النجم:٣٣-٥٦].

هذه الآيات الكريمات، والتي في سورة الأعلىٰ قيل: إنها مذكورة في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليها السلام ـ بلفظها ومعناها، أو بمضمونها فقط(١)، والرأي الأخير هو الذي أميل؛ لأنه لا إعجاز إلا في آيات القرآن الكريم.

---

(١) ـ ذكر العلامة ابن كثير الرأيين السابقين، ورجح أن الورود بالمضمون هو الأحسن والأقوىٰ فقال: قوله تعالىٰ: "إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ " قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ " إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ

وآيات سورة النجم هذه ذكر القرطبي أنها في صحف إبراهيم وموسىٰ فقال: "وَقَالَ السُّدِّيُّ أَخْبَرَنِي أَبُو صَالِحٍ قَالَ: هَذِهِ الْحُرُوفُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ

الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ " قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «كَانَ كُلُّ هَذَا- أَوْ كَانَ هَذَا- فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ» ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُ أَسْنَدَ الثِّقَاتَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ غَيْرَ هَذَا، وَحَدِيثًا آخر رواه مثل هَذَا.

وَقَالَ النَّسَائِيُّ أَخْبَرَنَا زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَىٰ، أَخْبَرَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قَالَ: كُلُّهَا فِي صحف إبراهيم وموسىٰ، ولما نَزَلَتْ وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ [النَّجْم: ٣٦] قَالَ: " وَفَّىٰ إبراهيم ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النَّجْم: ٣٧] يَعْنِي أن هذه الآية كقوله تعالىٰ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النجم:٣٦-٤٢].الْآيَاتِ إِلَىٰ آخِرِهِنَّ.

وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ عَنْ مِهْرَانَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ أبيه عن عكرمة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعلى:١٨-١٩]. إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ " يَقُولُ: الْآيَاتُ الَّتِي فِي ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِهِ:قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الأعلى:١٤-١٧]، ثم قال تعالىٰ: إِنَّ هَذَا أَيْ مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوُهُ. ينظر: تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (٤/ ٥٠٣).

تَعَالَىٰ مِنْ قَوْلِهِ ـ تَعَالَىٰ ـ: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ كُلُّ هذه في صحف إبراهيم وموسىٰ "[1]، وبمراجعة سبب نزول الآية في المبحث الثاني يتبين أن القرآن الكريم يلفت الانتباه إلي أنه لا أحد يعلم الغيب، فلا ينبغي لعاقل ـ حينئذٍ ـ أن ينساق وراء هذا التفكير العقيم، والمنطق السقيم الذي قال به أصحاب الأضاليل من أنه يوم القيامة سيحمل الصديق عن الصديق ذنوبه مقابل حفنة من المال في الدنيا، فالإسلام وغيره من الأديان السماوية السابقة الصحيحة ينكر الخطيئة والفداء التي نادي بها اليهود والمشركون في زمن النبوة وقبلها بأحقاب كثيرة.

وتقرر الآيات بعد لفت الانتباه السابق إلي أمرٍ آخر اتفقت عليه الرسالات السماوية وهو أن كل نفسٍ بما كسبت رهينة، وأن الإنسان ليس له إلا ما سعىٰ، ثم تنتقل الآيات إلي بيان طلاقة قدرة الله ـ تعالىٰ ـ حيث لا يقدر علىٰ الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء وغير ذلك إلا هو.

ثم تنتقل الآيات إلي تعداد الأمم التي أهلكها المنتقم الجبار ـ جل جلاله، وهم: قوم عاد، وثمود، ونوح، ولوط، وسمىٰ الله قوم لوط بالمؤتفكة؛ لأنها"القرىٰ التي ائتفكت بأهلها، وهم قوم لوط"[2] ثم اختتمت الآيات

---

(١) ـ تفسير القرطبي المسمىٰ بالجامع لحكام القرآن ـ لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ: ٦٧١هـ) (١٧/ ١٢١) ـ الناشر/ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط/ الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م

(٢) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٦).

بهذا السؤال ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ؟﴾ وذكر الزمخشري، والرازي ـ رحمهما الله ـ أن الخطاب فيه للرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ، أو للإنسان علىٰ الإطلاق(١)، والأولىٰ أن يكون الخطاب للمعرف بالاسم الموصول للتحقير والإهانة في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ ونلمح في هذا السؤال أن القرآن الكريم التفت من الغيبة في قوله: "أعنده علم الغيب" إلي الخطاب في هذا السؤال، ومقتضىٰ الظاهر في غير القرآن أن يكون التعبير هكذا: "فبأي آلاء ربه يتمارىٰ" لكن الله تعالىٰ ـ عبر ـ بضمير الخطاب لينكر علىٰ هذا الذي ادعىٰ علم الغيب، وأمثاله عبر الأزمان عدم اعترافه باختصاص الله ـ تعالىٰ ـ بعلم الغيب، كما ينكر عليه أيضًا عماه عن مشاهدة النعم التي هي ملء النواظر والأبصار. ها نحن إذا أمام مقامات متعددة في هذا السياق القرآني، ونقف الآن عند أول مقام

(١) ـ السابق: (٤/ ٣٠٦)، ومفاتيح الغيب: (٣١/ ٤٩).

المقام الأول: مقام مؤاخذة الإنسان بذنبه، وإثابته بعمله

آيات هذا المقام هي قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[الأعلىٰ: ٣٨ـ٤٢].

أول ما يطالعنا من بلاغة هذا المقام هو باب الفصل والوصل، فالفصل بين قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ لكمال الاتصال حيث إن قوله ـ تعالىٰ ـ: (ألا تزر...) بدل مما في صحف موسىٰ، أو هي من قبيل شبه كمال الاتصال، كأنه قيل: ما في صحف موسىٰ وإبراهيم؟ فقيل: أن لا تزر(١)، ووصل بين الآيات الأخرىٰ في هذا المقام بالواو؛ لما بين الجمل من التوسط بين الكمالين، فهي جمل خبرية مؤكدة بـ(أنَّ)، ودل الاتصال علىٰ تماسك هذه المبادئ السماوية، واتحادها في انضباط شخصية الإنسان، والانتقال بتفكيره إلي ما هو أهنأ وأنقىٰ وأسلم.

ثم يطالعنا القصر في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وطريق هذا القصر هو النفي والاستثناء(٢)، وهو من قصر الموصوف علىٰ الصفة قصرًا حقيقيًا، واللام في الموصوف وهو كلمة "للإنسان" يجوز أن تكون للملك، أو للاختصاص، وعبر في المقصور عليه (إلا ما سعىٰ) "بصيغة

(١) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٥)

(٢) ـ هذا الطريق يقتضي أن تشتمل الجملة علىٰ أداتين أحدهما للنفي، والثانية للإثبات، ويتحقق النفي (بأي أداة من أدواته كليس وما وإن وغيرها من أدوات النفي، والاستثناء بـ" إلا" وإحدىٰ أخواتها) ينظر: حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد: (٢/ ١٩١)

الماضي دون المستقبل لزيادة الحث علىٰ السعي في العمل الصالح"[1] وهذه الآية مما في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ وأكدت بأقوىٰ طرق القصر، وأبلغها أنه" كما لا يؤاخذ أحد بذنب غيره لا يثاب بفعله، وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون الناوي له كالنائب عنه"[2]، وهذا القصر مما دار حوله كلام كثير من العلماء والمفسرين، لأن ظاهره يفيد العموم، ويوهم التعارض مع ما ورد في صحيح السنة والإجماع، ولأجل هذا الفهم المتناقض رأىٰ ابن عباس ـ رحمه الله ـ أن عدم إثابة الإنسان بسعي غيره وفعله "منسوخٌ الحكم في هذه الشريعة، فالحصر المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[الطور: ٢١]، فإنه يدل علىٰ أن الذريات يدخلون الجنة بعمل آبائهم، وقال عكرمة: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسىٰ، وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا أي: ما عملوا، وسعىٰ لهم غيرهم، لما روىٰ أن امرأة رفعت صبيًا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المحفة فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر"[3]... ونظائر ذلك كثيرة لا تحصىٰ، والآيات الدالة علىٰ مضاعفة الثواب أيضًا كثيرة، فلابد من توجيه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٣٤)

(٢) ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ للعلامة القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ) ـ تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ـ ط/ الأولىٰ – ١٤١٨هـ

(٣) ـ صحيح مسلم المسمىٰ بـ{ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ـ باب حج الصبيان ـ (٤/ ١٠١)ـ الناشر: دار الجيل – بيروت

﴿سَعَىٰ﴾ فإنه لاشتماله علىٰ النفي والاستثناء يدل علىٰ أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمل نفسه، ولا يجزىٰ إلا علىٰ قدر سعيه، ولا يزاد عليه، وذلك يخالف الأقوال الواردة في انتفاعه بعمل غيره، وفي مضاعفة ثواب أعماله، ولا يصح أن يؤول بما يخالف صريح الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، فقول المصنف: "وما جاء في الأخبار من أن الصدقة... " جواب عن هذا الإشكال... فكأنه قيل: وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ بنفسه حقيقة أو حكمًا، فإن عمل الوكيل عمل للموكل حكمًا... "(١).

وبناء علىٰ ذلك فإن أسلوب القصر هنا لا يفيد العموم، بل العموم فيه مخصص، والآية ليست منسوخة؛ لأن جملة القصر من الأساليب الخبرية، والخبر لا يدخله النسخ كما يرىٰ جمهور العلماء(٢) يقول العلامة ابن عطية: "وهذا لا يصح عندي علىٰ ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلا"(٣) ويقول ابن عجيبة الحسني ـ رحمه الله ـ: "هو لفظ عام مخصّص. هـ. يعني: أن

(١) ـ حاشية محيي الدين شيخ زادة (ت٩٥١هـ) علىٰ تفسير القاضي البيضاوي ـ تح/ محمد عبدالقادر حسين: (٨/ ٢٥) ـ منشورات بيضون ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٢) ـ جمهور العلماء علىٰ أن النسخ مختص بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب علىٰ الله ـ تعالىٰ ـ، وقيل: إن الخبر إذا تضمن حكمًا شرعيًا جاز نسخه. ينظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ـ د/ محمد علىٰ الصابوني ـ (١/ ١٠٧) ـ منشورات مكتبة الغزالي بدمشق ـ ط/ الأولىٰ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(٣) ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفىٰ: ٥٤٢هـ) ـ تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد ـ (٥/ ٢٠٦) ـ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ

المراد: الكافر، وهكذا استقرئ من لفظ الإنسان في القرآن"[1] فسياقات كلمة إنسان في القرآن سياقات ذمٍ لا مدح، وسياق هذا القصر كما سبق تصحيح اعتقاد أهل الشرك، ولفت أنظارهم إلي ما قررته الشرائع السماوية السابقة كصحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ، ويتعلق قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ بأسلوب القصر؛ فقد عطف عليه بالواو للدلالة علىٰ تناغمه وتلاؤمه مع اتحاد أصول الرسالات، وخبرية الجملة المؤكدة بـ (أنَّ) دلت كذلك علىٰ الحفظ والصون للأعمال الدنيوية خيرها وشرها، أو هي لغرض بشارة المؤمن بما سيفاجأ به يوم القيامة، وسوف للمستقبل البعيد، ويُرىٰ مبني لما لم يسم فاعله، وقد حذف متعلقه، وهو الظرف أي: يوم القيامة، وحكمة حذفه "تشريف المحسنين بحسن السمعة، وإنكار المسيئين بسوء الأحدوثة"[2].

وأردفت هذه الآية بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ وعطفت علىٰ ما قبلها بـ(ثم) وهي للتراخي للدلالة علىٰ أن ثواب العمل الصالح جزاؤه الأوفىٰ يكون يوم القيامة، ولو جوزي به في الدنيا، فإنه سيكون ثَمَّ تفاوت بينهما، والله أعلم.

ووصف الجزاء الأخروي بـ(الأوفىٰ) "إشارة إلي الزيادة... وهذا الوجه يليه بتفسير اللفظ، فإن الأوفىٰ مطلق غير مبين، فلم يقل: أوفي من كذا، فينبغي

(١) ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ) تح/ أحمد عبد الله القرشي رسلان ـ الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة ـ ط/ ١٤١٩هـ

(٢) ـ التحرير والتنوير: (٢٧/ ١٤٠)

أن يكون أوفي من كل وافٍ، ولا يتصف به غير الله تعالىٰ"(١)، فهذه الكلمة موحية الدلالة، وتذهب النفس في معناها كل مذهبٍ.

ثم ختم هذا المقام بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، هي جملة خبرية مؤكدة بـ (أنَّ) ـ كذلك ـ ومعطوفة علىٰ ما قبلها لاتفاقهما في الخبرية، فبينهما توسط بين الكمالين، وهي –أيضًا– مما في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ وغرضها بيان المصير، وتقديم خبر (أنَّ) علىٰ اسمها يفيد القصر، وهي قصر حقيقيٌ تحقيقيٌ يطابق الواقع، واسم (أنَّ) المؤخر كثير الإيحاء والدلالات البلاغية؛ إذ هو "من العبارات المشحونة بمعانٍ كثيرة: فإلي الله منتهىٰ كل شيء، وإلي الله المصير، والإنسان والمخلوقات جميعًا أينما اتجهت فثم وجه الله، وإليه منتهاها، وينبغي علىٰ البشر أن ينتهوا عند حدود الله لا يتعدونها"(٢).

❁❁❁❁❁

(١) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٣٦)

(٢) ـ سورة النجم دراسة أسلوبية بلاغية مضمونيه ـ د/ إبراهيم عوض ـ صـ: ٢٥ ـ الطائف ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

المقام الثاني: مقام طلاقة القدرة الإلهية

آيات هذا المقام هي قوله ـ جل شأنه ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة النجم:٤٣-٥٠].

يفصح هذا السياق القرآني عن طلاقة قدرة الله ـ جل شأنه ـ حيث لا يقدر علىٰ جمع هذه المختلفات غيره ـ تعالىٰ وتقدس ـ وهذه الآيات مما جاء في صحف النبيين الكريمين إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ والآيات كلها خبرية مؤكدة بأكثر من مؤكدٍ مثل أنَّ، وضمير الشأن، وضمير الفصل، ودلالته علىٰ القصر الذي هو تأكيد علىٰ تأكيد، وذلك لإثبات تلك القدرة المطلقة، وللرد علىٰ المنكرين اتصاف الله ـ تعالىٰ ـ بهذه الصفات، وادعاؤهم القدرة علىٰ الاتصاف بها، وهذه الآيات الكريمات مما شاع الاستشهاد بها في أسفار البلاغيين للدلالة علىٰ تخصيص المسند بالمسند إليه، وذلك إذا ولي المسند إليه ضمير الفصل (هو).

ومما هو جدير بالذكر هنا، وحسن أن ينبه إليه أن من البلاغيين من عرف ضمير الفصل فقال: "والفصل هو صورة ضمير واقع بين المبتدأ والخبر، أو ما أصلهما كذلك"(١)، ولا يلزم الإتيان بضمير الفصل إلا إذا تحقق في الكلام ثلاثة شروط "أن يكون المبتدأ قبله غير مسبوق بناسخ، وأن

(١) ـ عروس الأفراح للسبكي ـ ضمن شروح التلخيص: (١/ ٣٨٦).

يكون المبتدأ اسمًا ظاهرًا، وأن يكون الخبر صالحًا لأن ينعت به المبتدأ"[1] فإذا تحققت هذه الشروط وجب أن يؤتىٰ بضمير الفصل دفعًا لالتباس خبر المبتدأ بنعته، فإذا ما انخرم شرط لم يلزم الإتيان بضمير الفصل، بل كان الإتيان به جائزًا، ولذلك أجاز جماعة الإتيان بضمير الفصل والخبر فعل مضارع؛ لمشابهة المضارع الاسم، وامتناع دخول (أل) عليه، فشابه الاسم المعرفة، وجعلوا منه قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة: ١٠٤]... وجوز آخرون أن يكون الخبر فعلاً ماضيًا"[2] وذلك كما في الآيات التي هي محل الدراسة في هذا المقام، فإن أضحك وأبكي، وأمات وأحيا، كلها أفعال ماضية، ولهذا فإن ضمير الفصل هنا جيء به جوازًا لا وجوبًا لغرض التخصيص والتأكيد، وذهب السعد إلي أن ضمير الفصل الذي تتحقق شروطه كما يدل علىٰ القصر يدل علىٰ التأكيد فحسب، وذلك إذا كان في الكلام ما يدل علىٰ التخصيص[3]، وتبعه الدسوقي فقال منبهًا إلي ما في كلام الخطيب القزويني في التلخيص[4] من إيهام: "ربما أوهم كلامه انحصار نكاته في التخصيص المذكور مع أنه قد يكون لغير ذلك

(١) ـ تتحقق الشروط الثلاثة في قولنا: "زيد هو القائم"، ومعناه أن القيام مقصور علىٰ زيد لا يتجاوزه إلي عمرو، ولهذا يقال في تأكيده لا عمرو. ينظر المطول: ١٠٤.

(٢) ـ سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة بيانية ناقدة ـ أد/ محمود توفيق صـ: ٣٩٠ـ مطبعة الأمانة بالقاهرة ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٣) ـ المطول: ١٠٥

(٤) ـ يقول الخطيب: (وأما الفصل فلتخصيصه بالمسند) ينظر تلخيص المفتاح: (١/ ٤٨٥) ـ ضمن شروح التلخيص.

كالتمييز بين كون ما بعده خبرًا أو نعتًا، وكالتأكيد إذا حصل الحصر بغيره كما إذا كانت الجملة معرفة الطرفين فيها ضمير فصل نحو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[الذاريات: ٥٨] فيحمل كلام المصنف علىٰ أن التخصيص من نكاته"(١).

ويستفاد من هذا أن ضمير الفصل في هذه الآيات الدالة علىٰ طلاقة قدرة الله ـ تعالىٰ ـ قد يكون للتأكيد وليس للحصر لفقد الشروط التي سبق بيانها، لكن المقام الذي ورد فيه ضمير الفصل ـ هنا ـ أكد دلالته علىٰ الحصر، حيث إنه سياقٌ يرد فيه علىٰ المنكرين لقدرة الله، والمدعين الاتصاف بصفاته ـ جل جلاله ـ "فقد أتي بضمير الفصل هنا فيما ادعي فيه نسبة ذلك المعنىٰ إلي غير الله ـ تعالىٰ ـ، ولم يؤت به حيث لم يدع ذلك كما في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾فإنه ظاهرٌ في اختصاص الله به، بل هو في غاية التعذر علىٰ غيره، فأعراه ضمير الفصل، وقد نقده السبكي بأن الخلق أحياء، وقد نوزع في الأحياء، وجاء معه ضمير الفصل في ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾"(٢)، ونص السبكي ـ رحمه الله هو: " استدل له السهيلي، بأنه أتىٰ به في كل موضع ادعىٰ فيه نسبة ذلك المعنىٰ إلىٰ غير الله ـ تعالىٰ ـ، ولم يؤت به حيث لم يدع، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ إلىٰ آخر الآية، وذكر نحوه التنوخي، غير أنه جعل الضمير للتأكيد، ولم يذكر الحصر.

(١) ـ حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد: (١/ ٣٨٦).

(٢) ـ سبل الاستنباط من الكتاب والسنة ـ أد/ محمود توفيق ـ صـ: ٣٩٠

وفيما قالاه نظر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ مع قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ فالإحياء خلق، وإن كان الخلق لم ينسبه أحد لغير الله تعالىٰ فقد أتىٰ فيه بضمير الفصل في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ علىٰ خلاف ما زعماه، وإن كان الإماتة والإحياء قد نسبا لغير الله تعالىٰ، كما تضمنه قول النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة:] فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾لم يؤكده بالفصل مع أنه منه.)[1].

وغير خفي علىٰ ذي ذوق أن السورة الكريمة قصيرة الآيات، فهي تخاطب الوجدان والمشاعر، والعواطف والإحساس الداخلي للإنسان، وهذا يتناغم معه الحذف؛ إذ المخاطب إذا كان معاندًا منكرًا فأولىٰ بحاله أن يقرع بالعبارات والجمل القصار، لتهتز ظواهره، وترتعد بواطنه، وحذف متعلق الأفعال الماضية أضحك، وأبكىٰ وغيرها مما يتناسب مع حال المخاطب؛ إذ إنه في حاجة أن يعرف الفاعل حق المعرفة، وينصرف ذهنه إلي طلاقة قدرته، وعليه فالمفعول محذوف، وهذا الحذف يستثير أسئلة هي: أضحك من؟، وأبكي من؟، وأحيا من؟، وأمات من؟ وهكذا يتضح أن غرض الحذف هو "إثبات المعنىٰ في نفسه للفاعل من غير نظرٍ إلي شيءٍ وراء ذلك"[2].

(١) ـ عروس الأفراح: (١/ ٣٨٦)

(٢) ـ خصائص التراكيب ـ أد/ محمد أبو موسىٰ: ٣٤٢ ـ مكتبة وهبة ـ ط/ الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م

وآيات هذا المقام تجمع بين المختلفات، وهذا هو الطباق[1] الذي يعطىٰ للآيات نغمًا بديعًا حسنًا، فالحق ـ جل جلاله ـ جمع بين الضحك والبكاء، الإماتة والإحياء، والذكر والأنثىٰ، والإغناء والإقناء، وكلها من طباق الإيجاب.

ولا يخفىٰ أثر هذا في إثبات طلاقة القدرة حيث لا يقدر علىٰ ذلك غيره ـ جل جلاله ـ وعلىٰ ذلك "فالطباق من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذا الضد أقرب خطورًا علىٰ البال عند ذكر ضده كما يقولون"[2] فهو من مقتضيات الأحوال، وموجبات الأغراض كما يقال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ مشتمل علىٰ لون بلاغي يعرف بالتنكيت[3]، وهذه الآية كسوابقها موصولة بهم، للتوسط بين الكمالين، ومؤكدة بضمير الفصل الدال علىٰ الاختصاص، والشعرىٰ نجم في السماء،

---

(١) ـ الطباق من فنون البديع المعنوي، وهو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين الجملة. ينظر/ المطول للسعد ـ صـ: ٤١٧

(٢) ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية ـ د/ أحمد إبراهيم موسىٰ ـ صـ: ٤٧١

(٣) ـ التنكيت أن يقصد المتكلم إلي شيءٍ بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود ترجح اختصاصه بالذكر دون ما يسد مسده، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأً ظاهراً عند أهل النقد. ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ـ لابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) (٣/ ٤٩٩) ـ تح د/ حفني شرف ـ المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ـ ط/ ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

ولكن لماذا خصص بالذكر دون غيره من النجوم؟ يقول ابن أبي الإصبع: "فإنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ خص الشعري بالذكر دون غيرها من النجوم، وهو رب كل شيءٍ؛ لأن العرب كان قد ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبي كبشة عَبَدَ الشعرىٰ، ودعا خلقًا إلي عبادتها، فأنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾التي ادعيت فيها الربوبية دون سائر النجوم"(١)، ووراء التعبير بالربوبية سر بلاغي عن التعبير بالألوهية، فقال ـ جل شأنه ـ "رب الشعرىٰ، ولم يقل: إله الشعرىٰ؛ لأن الربوبية فيها إشارة إلي أنها مخلوقة له ـ سبحانه ـ ، فكيف تعبد من دون الله؟ "(٢)

وختم هذا المقام بنفس ما بدئ به من حيث البناء الأسلوبي الدال علىٰ طلاقة القدرة في الرد علىٰ المنكرين فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ والملاحظ هنا أن لم يأت ضمير الفصل (هو) مع صفة من صفات الله ـ تعالىٰ ـ، وهي إهلاك عادًا الأولىٰ، واستئصالهم، وسر ذلك: "أن استئصال قومٍ مما لا تظن فيه الشركة"(٣) وقد يمكن أن يكون عدم الإتيان بالضمير؛ لأن صفة الإهلاك مما قد يظن فيها الادّعاء كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾[الجاثية: ٢٤] وعليه فالمقصد هنا هو التأكيد فقط وليس القصر، ولذلك لم يأت ضمير الفصل؛ لأن التأكيد مفاد بدونه.

❁❁❁❁❁

(١) ـ تحرير التحبير: (٣/ ٤٩٩)

(٢) ـ خصائص التراكيب ـ صـ: ٨٤

(٣) ـ السابق ـ صـ: ٨٤

المقام الثالث: مقام بيان مصير منكري الرسالات

آيات هذا المقام هي قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [سورة النجم: ٥٠-٥٦].

ابتدأ هذا المقام بالعطف علىٰ سابقه، وجمل هذا المقام خبرية كسابقه، وغرضها البلاغي هو بيان العاقبة الوخيمة التي آل إليها المنكرون للرسالات، وبين الجملة الأولىٰ في هذا المقام وآخر جملة في المقام السابق توسط بين الكمالين، وهو ما حسن العطف بينهما، والنسق الترتيبي للإخبار عن مصارع هؤلاء الأقوام عجيب رصفه، حيث بدأ بمن قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾[فصلت: ١٥]وهم قوم عاد الذين أرسل إليهم سيدنا هود ـ عليه السلام ـ وهم أسبق زمنًا من قوم ثمود، فروعي الترتيب الزمني هنا، وقيل إنه "بدأ بقوم (عاد)؛ لأنهم كانوا أقوىٰ الأمم وأغناهم "[1]، ووصف قوم عاد بالأُولىٰ، وسر هذا الوصف هو بيان أشرفيتهم في الدنيا، " وعادٌ الأولىٰ قوم هود، وعاد الأخرىٰ إرم، وقيل: الأولىٰ القدماء؛ لأنهم أُولىٰ الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف"[2].

(١) ـ تأملات في بلاغة القرآن ـ د/ عبدالحميد مصطفىٰ ـ صـ: ١٤١ ـ مطبعة الأمانة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٥).

وفي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾حذف للفعل (أهلك)؛ لدلالة ما قبله عليه، وثمود منصوب به، "ولا يصح أن يكون مفعولاً مقدمًا لـ(أبقىٰ)؛ لأن لـ(ما) النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها"(١) وفي الآية ـ أيضًا ـ حذف للمتعلق وهو مفعول (أبقىٰ) وتقديره: (أحدًا)، وسر الحذف هو إثبات هذا المعنىٰ للفاعل من غير نظرٍ إلي شيءٍ آخر.

ثم عطف عليهما هلاك قوم نوحٍ ـ عليه السلام ـ وهو من التوسط بين الكمالين، وأكد بـ إنَّ، واسمية الجملة، وضمير الفصل هم استحقاقهم العذاب والاستئصال؛ لأنهم وصلوا إلي حدٍّ عظيم من الظلم والطغيان، وفاقوا بهما علىٰ بني جنسهم، "وصرح بالقبلية لقدمهم في الزمن عمن سبقهم"(٢)

وبلاغة التعبير عن المسند (أظلم، وأطغىٰ) بـ(أفعل التفضيل) دون غيره من الأساليب كالمصدر واسم الفاعل مثلاً، هو تأكيد التحذير من الظلم والطغيان حتىٰ لا نزل كما زلوا؛ ولأن "المقصود بيان شدتهم، وقوة أجسامهم؛ فإنهم لم يقدموا علىٰ الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم، وطول أعمارهم ومع ذلك ما نجا أحد منهم، فما حال من هو دونهم من العمر والقوة؟ "(٣)، وتقديم أظلم علىٰ أطغىٰ؛ لأنه الطغيان مترتب عليه، فالبادئ بالصدِّ عن سبيل الله يظلم نفسه، فإذا استمرأ ذلك طغىٰ.

---

(١) ـ إعراب القرآن وبيانه: (٧/ ٣٤٢).

(٢) ـ تأملات في بلاغة القرآن: ١٤٢

(٣) ـ مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٤٧)

ثم تتابع الإخبار عن مصائر المنكرين للرسالات، فأخبر عن العقاب المناسب لقوم سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾، وسر الوصل بين هاتين الآيتين، وما قبلهما هو التوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية، والائتفاك هو الانقلاب، وهو منصوب علىٰ المفعولية للفعل أهوىٰ، وسر التقديم هو القصر أي: ما ائتفك إلا قوم لوط، فقصرهم علىٰ هذا العذاب قصر صفة علىٰ موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا؛ "والائتفاك أفضل عقاب يناسب قوم لوط؛ لأن هوايتهم قلب الأمور حتىٰ في حياتهم الخاصة، أليسوا هم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء،؟ مما يعد دليلاً علىٰ طبيعتهم المقلوبة"(١).

ثم جاء التهويل العظيم بعد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ: "﴿ما غشىٰ﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليهم من العذاب، وأمطر عليهم من الصخر الممدود"(٢).

والتهويل والتخويف العظيم مستفاد من اسم الموصول (ما)؛ وهذا ما ذهب إليه البلاغيون حيث ذكروا أن في الاسم الموصول فيه إبهامًا يومئ إلي أن التهويل والتخويف مما لا تفي العبارة عن ببيانه ووصفه، فالحجارة التي غشيتهم كثيرة جدًا جدًا، والعذاب الذي صب عليهم أتي علىٰ جميع من قلب الحق باطلاً، والفطرة النقية إلي غير ما خلقت عليه، ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[طه: ٧٨] فتعريف المسند إليه بالاسم

(١) ـ تأملات في بلاغة القرآن: ١٤٥

(٢) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٦)

الموصول أبهم أمر العقاب بماء اليم، حتىٰ أومأ التهويل؛ "وذلك لأنه يشير إلي أن ما غشيهم بلغ من العظم غاية لا تدرك، ولا تفي العبارة ببيانها"(١)، فالله ـ تعالىٰ ـ عبر بالماضوية في التغشية وهو المسند؛ لإفادة تحققها من جهة، وكثرتها من جهة أخرىٰ، فغطاهم الله بألوان من العذاب لا يحيط البيان عن تخيله، فهو عذاب مهولٌ.

هذا ما ذكره الله ـ تعالىٰ ـ في سورة النجم عن ما جاء في صحف سيدنا إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ "وقد اشتمل ما ذكره ـ سبحانه ـ من الصحف علىٰ بيان ما ينفع من الأعمال وما يضر، وبيان التوحيد بإحاطة الله ـ سبحانه ـ بالنهايات التي لا نهاية بعدها علمًا وقدرة؛ لاختصاصه ببيان المصنوعات، وببيان البعث للتخويف بالآجل، وإهلاك المرتدين للتخويف بالعاجل لمن كان قلبه جافيًا عن النفوذ إلىٰ الآجل.

ولما أهلك كل واحدة من هذه الفرقة فلم يبق من فجارها أحدًا، وأنجىٰ من أطاعه منهم فلم يهلك منهم أحدًا، وكان إهلاكه لكل منها بشيء غير ما هلك به الفريق الآخر، فدل كل من ذلك علىٰ تمام علمه وكمال قدرته... قال مسببًا عما مضىٰ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾"(٢).

وهذا الاستفهام إنكاري بمعنى: ما كان ينبغي أن يكون منك هذا الشك في آلاء ربك، وإيثار لفظة الربوبية لما تحمله من معنىٰ العناية والرعاية، وهو

(١) ـ حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد: (١/ ٣٠٦)

(٢) ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ـ رحمه الله ـ: (١٩/ ٤٤).

ما يتناغم مع الآلاء، والآلاء "النِّعَمُ لَا يَتَشَكَّكُ فِيهَا سَامِعٌ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ نِعَمٍ وَنِقَمٍ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهَا كُلِّهَا آلاءً لِمَا فِي النِّقَمِ مِنَ الزَّجْرِ وَالْوَعْظِ لِمَنِ اعْتَبَرَ "(١).

هذا الذي سبق في المقامات الثلاثة في هذا المبحث أخبر القرآن الكريم أنه جاء في صحف النبيين الكريمين إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ بلفظه أو بمعناه، وإن كنت أميل إلي مجيئه بالمضمون؛ لأنه لا يتعلق إعجاز بما في التوراة أو الصحف الإبراهيمية الآن؛ وأيا ما كان الأمر فإن في ذلك دلالة علىٰ اتحاد الرسالات السماوية في أصولها، ونِعِمَّ ما دل عليه اسم الإشارة (هذا) في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، والمشار إليه مختلف فيه، فقيل: إلي القرآن، وقيل: إلي الرسول ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وقيل: إلي ما سلف عن الإخبار إلي الأمم(٢)، والمعنىٰ يحتمل هذه الأقوال.

❁❁❁❁❁

(١) ـ البحر المحيط في التفسير ـ (١٠/ ٥)

(٢) ـ الكشاف: (٤/ ٣٠٦)، مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٤٩)، البحر المحيط (١٠/ ٥).

المطلب الثاني:

بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسى ـ عيهما السلام ـ في سورة الأعلى.

يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [سورة الأعلى: ١-١٩].

ذكر المفسرون القدامىٰ الاختلاف في المشار إليه بلفظ (هذا) في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فقيل: إلي السورة كلها، وقيل: من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلي ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾[1] ورجح الإمام القرطبي القول الثاني فقال: "وأوْلىٰ الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: إن قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لفي الصحف الأولىٰ، صحف إبراهيم خليل الرحمن، وصحف موسىٰ بن عمران، وإنما قلت ذلك أوْلىٰ بالصحة من غيره؛ لأن هذا إشارة إلىٰ حاضر، فلأن يكون إشارة إلىٰ ما قرب منها أوْلىٰ من أن يكون إشارة إلىٰ غيره"[2]،

---

(١) ـ الكشاف: (٤/ ٥٨٠)، مفاتيح الغيب: (٣١/ ٣٦٧).

(٢) ـ جامع البيان في تأويل القرآن ـ لأبي محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفىٰ: ٣١٠هـ) ـ تح/ أحمد محمد شاكر ـ (٢٤/ ٣٦٧). ـ الناشر: مؤسسة الرسالة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

وهذا ما أميل إليه، وبناء علىٰ ذلك أُبيِّنُ المعاني والأسرار البلاغية ـ بعون الله تعالىٰ ـ بداية من قوله ـ جل شأنه ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

الآية الكريمة إخبار مؤكد بـ(قد) وأفلح فعلٌ ماض مسند، و(من) اسم موصول بمعنىٰ (الذي) مسند إليه، و(تزكي) فعل مضارع صلة الموصول، وتأكيد الجملة الخبرية هنا لتعظيم أمر تزكية النفس وتطهيرها من الأدناس، "وَالْإِتْيَانُ بِفِعْلِ الْمُضِيِّ فِي قَوْلِهِ ﴿أَفْلَحَ﴾ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ الْمُحَقَّقِ وُقُوعِهِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَاقْتِرَانِهِ بِحَرْفِ قَدْ لتحقيقه وتثبيته"(١) والتضعيف في التزكية يدل علىٰ المجاهدة المستمرة للنفس البشرية التي يعتريها الفتور من الطاعة، وعليه ففرق بين التعبير بـ (زكَّي)، و"تَزكَّىٰ" ففي التضعيف إيحاء بكثرة الجهاد النفسي أثناء القيام بالطاعات، "وَقَدَّمَ التَّزَكِّيَ عَلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ الْعَمَلِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهُ إِذَا تَطَهَّرَتِ النَّفْسُ أَشْرَقَتْ فِيهَا أَنْوَارُ الْهِدَايَةِ فَعَلِمَتْ مَنَافِعَهَا وَأَكْثَرَتْ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا)(٢).

وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ جملة معطوفة علىٰ الآية السابقة، وبينهما توسط بين الكمالين، فهما جملتان خبريتان، والملاحظ في الآيتين إيثار التعبير بالفعل الماضي (أفلح، تزكىٰ، ذكر، صلىٰ) وهذا يدل علىٰ تحقق وقوع الفعل، وإيثار الربوبية علىٰ الألوهية في هذا المقام؛ لأنه يتناغم مع تزكية النفس وتطهرها بالذكر، والصلاة، والفاء في (فصلىٰ) جاءت للدلالة علىٰ تتابع هذه المقامات: مقام التزكية، والذكر، والمناجاة التي في الصلاة.

---

(١) ـ التحرير والتنوير: (٣٠/ ٢٨٧).

(٢) ـ السابق: نفس الصفحة

هاتان الآيتان الكريمتان وعدٌ من الله ـ تعالىٰ ـ بفلاح من جمع بين التزكية، والذكر، والصلاة، ويضاد هذا الوعد الذي لا يتخلف وعيدٌ شديد منه ـ جل شأنه ـ لمن آثر الحياة الدنيا فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، فـ(بل) هنا للإضراب الانتقالي، يقول الشيخ الطاهر ـ رحمه الله ـ : "وَحَرْفُ (بَلْ) مَعْنَاهُ الْجَامِعُ هُوَ الْإِضْرَابُ، أَيِ انْصِرَافُ الْقَوْلِ أَوِ الْحُكْمِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي بَعْدَ (بَلْ)، فَهُوَ إِذَا عَطَفَ الْمُفْرِدَاتِ كَانَ الْإِضْرَابُ إِبْطَالًا لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ: لِغَلَطٍ فِي ذِكْرِ الْمَعْطُوفِ، أَوْ لِلِاحْتِرَازِ عَنْهُ فَذَلِكَ انْصِرَافٌ عَنِ الْحُكْمِ، وَإِذَا عَطَفَ الْجُمَلَ فَعَطْفُهُ عَطْفُ كَلَامٍ عَلَىٰ كَلَامٍ، وَهُوَ عَطْفٌ لَفْظِيٌّ مُجَرَّدٌ عَنِ التَّشْرِيكِ فِي الْحُكْمِ وَيَقَعُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ، فَتَارَةً يُقْصَدُ إِبْطَالُ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾[الْمُؤْمِنُونَ: ٧٠] فَهُوَ انْصِرَافٌ فِي الْحُكْمِ، وَتَارَةً يُقْصَدُ مُجَرَّدُ التَّنَقُّلِ مِنْ خَبَرٍ إِلَىٰ آخَرَ مَعَ عَدَمِ إِبْطَالِ الْأَوَّلِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾[الْمُؤْمِنُونَ: ٦٢، ٦٣]. فَتَكُونُ بَلْ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ (دَعْ هَذَا) فَهَذَا انْصِرَافٌ قَوْلِيٌّ. وَيُعْرَفُ أَحَدُ الْإِضْرَابَيْنِ بِالْقَرَائِنِ وَالسِّيَاقِ"(١)

والخطاب في الآيتين للمشركين، وهو خطاب ذمٍّ لهم؛ لإيثارهم الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وبين الدنيا والآخرة طباق حقيقيٌ أظهر تفاوت الدارين،

(١) ـ التحرير والتنوير: (٣٠/ ٢٨٧).

وبُعد ما بينهما من حيث إن صفتي الحياة الآخرة لا وجود لهما في الحياة الدنيا، وهي وإن كان فيها خير، إلا أنه لا يبقىٰ، لأنه متاع زائل.

وحذف كلمة (الحياة) في جانب الآخرة مع أنها أثبتت في جانب الدنيا للدلالة علىٰ الدوام والثبات والاستمرار، فالحياة الدنيا مهما طالت فهي غير دائمة.

وجمع بين الخيرية والبقاء في جانب الآخرة، وهو من عطف المفردات لبيان الكمال في كل صفة، وقدم الخير للتهنئة والبشارة والإسعاد، فمن تزكي، وذكر اسم ربه فصلىٰ هنيئًا له الآخرة بخيرها وبقائها.

ونسب ـ جل جلاله ـ إيثار الدنيا إلي أهل الشرك (تؤثرون) للتوبيخ والتعيير والذم؛ لأنهم آثروا ما لم يؤثره الله لهم، بل انساقوا وراء شهوات أنفسهم، وجاءت الحياة الدنيا مفعولاً به للفعل تؤثر للدلالة علىٰ هوانها، وعدة قوتها؛ لأنها فضلة، بينما جاءت الآخرة بالرفع للدلالة علىٰ عمدتها، وقوة شأنها، ولأن (الرفع يدل علىٰ الدوام والثبات)[1] وهذا ما توحيه دلالة التقديم والتأخير، ودلالة الحركة الإعرابية.

ثم يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ مؤكدًا ذلك بـ (إنَّ)، وإسمية الجملة؛ لأن الكلام مسوق للمنكرين المشركين، والوعد والوعيد الذي أفصحت عنه الآيات قد ورد بمعناه في الصحف الأولىٰ، والظرفية في الآية ظرفية مماثلة ومشابهة، ولذلك يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "وَمعنىٰ الظَّرْفِيَّة من قَوْلِهِ: ﴿لَفِي

(١) ـ المطول: ٧

﴿ٱلصُّحُفِ﴾ أَنَّ مُمَاثِلَهُ فِي الْمَعْنَىٰ مَكْتُوبٌ فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، فَأُطْلِقَتِ الصُّحُفُ عَلَىٰ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ)(١).

وبعد فهذا ما جاء في القرآن الكريم مما ورد في صحف سيدنا إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ ودل العطف بينهما بالواو علىٰ أن ما في صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو عين ما في صحف موسىٰ ـ عليه السلام ـ وأن جميع رسالات الأنبياء متوافقة في أصولها، والاختلاف بينها في الفروع فقط. هذا وأرجو من الله ـ جل شأنه ـ أن أكون قد وفقت لما قصدت، وهو حسبي ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

❁❁❁❁❁

(١) ـ التحرير والتنوير: (٣٠/ ٢٨٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني للإتمام، وحقق لي بلوغ هذا المرام، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خير البرية، وعلىٰ آله وأصحابه ذوي النفوس الزكية، وبعد..

فقد تناولت في هذا البحث مفردة من مفردات القرآن الكريم، ألا وهي: (الصحف)، وتمت دراستها ـ بحمد الله ـ مقرونة بمقامها وسياقها؛ وتوصل البحث إلي أن الصحف لم ترد في القرآن الكريم إلا جمع تكسير علىٰ وزن "فُعُلٍ"، وهو من جموع الكثرة، والصُحفُ جمعٌ لصحيفة وهو جمع نادرٌ قليلٌ، والقياس في صحيفة أن تجمع علىٰ صحائف، لا صحف؛ ولكن جاء التعبير القرآني بهذا الجمع النادر؛ لعدة أسباب منها: دلالة الصحف علىٰ العدد الكثير من الأوراق، أما الصحائف فإنها تقال للعدد القليل، هذا بالإضافة إلي أن الصحف يلازمها الكتابة، بخلاف الصحائف فلا يلازمها ذلك.

ومن المركوز في الطباع أن العلماء الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن متفقون علىٰ أنه لا يوجد إعجاز في اللفظة المفردة مقطوعة من سياقها، ومنفصلة عن سباقها ولحاقها، ولأجل هذا درست كلمة الصحف من خلال مقامها وسياقها، وظهر لي ـ بتوفيق الله ـ تعدد المقام الذي وردت فيه الصحف، وتعدد المراد بها كذلك، فجاءت في مقام التعنت والمكابرة، ومقام تصحيح الفهوم الخاطئة، ومقام الإخبار والإنذار مرادًا بها الكتب السماوية التي نزلت علىٰ الأنبياء السابقين، ومرادًا بها ـ أيضًا ـ كتب البراءة من النار.

كما جاءت في مقام العتاب مرادًا بها إما صحف منسوخة من اللوح المحفوظ، وإما القرآن الكريم، كما أتت ـ أيضًا ـ في مقام التوبيخ والتقريع مرادًا بها القرآن الكريم، وأتت في مقام تصوير أهوال يوم القيامة مرادًا بها صحف الأعمال.

وتوصل البحث ـ كذلك ـ إلي أن العلماء مختلفون حول ما جاء من صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ في القرآن الكريم، أهو باللفظ والمضمون، أم بالمضمون فقط؟، والصحيح أنه جاء بالمضمون.

وتوصل البحث ـ أيضًا ـ إلي أن المقامات التي جاءت في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ في القرآن الكريم مثل: مقام إثابة المحسن، وعقاب المسيء، وطلاقة القدرة، وهلاك المكذبين مما جاء في جميع صحف الأنبياء؛ وذلك لاتحاد رسالاتهم في الأصول.

ونتج عن اختلاف المراد بالصحف في كل مقام اختلاف هيئتها بين التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، فأما اختلاف هيئتها، فإنها أتت معرفةً بـ(أل) في ثلاث سور هي: (طه، والتكوير، والأعلىٰ)، ويلاحظ أنها في حال التعريف بـ(أل) (الصحف) يسبقها حرف الجر (في)، ويعقبها الوصف بكلمة (الأولىٰ)، وذلك في سورتي (طه، والأعلىٰ)، يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣]، ويقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٨]، وأما في سورة التكوير فعرفت بـ(أل) دون أن تسبق بحرف جر، لكنها أردفت بفعلٍ ماضٍ مقترنٍ بتاء التأنيث الساكنة، يقول ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التكوير: ١٠]، وظهر لي أمران مما

سبق، الأول: أن (الصحف) اسمٌ بدلالة جره؛ لأن الجر من علامات الأسماء. الثاني: أن (الصحف) جمع يدل علىٰ التأنيث بدلالة وصفه بمؤنث، فالأولىٰ مؤنث الأول، و (نشرتْ) فعل ألحق به تاء التأنيث للدلالة علىٰ أن الصحف المنشرة مؤنث، وقد وصفت بمؤنث أيضًا في سورتي المدثر، والبينة.

وأتت (الصحف) نكرة في السور الأخرىٰ، وهي: (النجم، والمدثر، وعبس، والأعلىٰ، والبينة)، والهيئة التي أتت عليها (الصحف) في حال التنكير هيئتان هما: هيئة الجر، وهيئة النصب، فهيئة النكرة المجرورة وردت في السور الآتية: (النجم، وعبس، والأعلىٰ)، وهيئة النكرة المنصوبة وردت في سورتي: (المدثر، والبينة)، هكذا (صحفًا منشرةً) و (صحفًا مطهرة) والمنشرة هي صحف الأعمال، والمطهرة هي القرآن الكريم.

ومن النتائج ـ أيضًا ـ أن بين الصحف الأولىٰ الواردة في سورة (طه)، وصحف إبراهيم وموسىٰ الواردة في سورة (النجم والأعلىٰ) عموم وخصوص، ومما هو ملحوظ بين سورتي النجم والأعلىٰ اتفاق فاصلتهما علىٰ حرف واحد، ويوجد بين سورتي (طه)، و(الأعلىٰ) اتفاق كبير في الفواصل، مما يدل علىٰ كثرة التناسب بينهما.

وفي الختام أسأل الله ـ تعالىٰ ـ أن يتقبل هذا العمل، وأن ينال حظًا من التوفيق، وإن يكن فيه شيءٌ من الصواب فذلك من فضل الله علىٰ كاتبه، وإن كان فيه تقصير فالله أسأل أن يعينني علىٰ استدراكه، والله من وراء القصد وهو الهادي إلي الصراط المستقيم، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم ـ جل من أنزله ـ.

الإتقان في علوم القرآن ـ لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الناشر/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ط/ ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

أثر السياق في التأويل البلاغي قديمًا وحديثًا ـ أد/ محمود موسىٰ حمدان ـ بحث منشور في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ط/ ١٤٢٧هـ

أساس البلاغة للزمخشري ـ تح/ محمد باسل عيون السود ـ منشورات محمد علىٰ بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

أسباب النزول ـ للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ـ تح/ السيد الجميلي ـ الناشر/ دار الريان للتراث ـ بدون تاريخ.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ للعلامة القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)

أوضح المسالك إلي ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، وعليه عدة السالك إلي تحقيق أوضح المسالك للشيخ/ محمد محي الدين عبدالحميد ـ الناشر/ المكتبة العصرية ـ صيدا/ بيروت ـ بدون تاريخ

الإيضاح للخطيب القزويني، ومعه البغية للشيخ عبدالمتعال الصعيدي ـ الناشر/ مكتبة الآداب ـ ط/ ١٩٩٩م

البحر المحيط في التفسير ـ لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ـ تح/ صدقي محمد جميل ـ (١٠/ ٥) ـ الناشر: دار الفكر- بيروت ـ ط/ ١٤٢٠هـ.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت ١٢٢٤هـ) تح/

أحمد عبد الله القرشي رسلان ـ الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة ـ ط/ ١٤١٩هـ

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ لكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني المتوفي ٦٥١هـ ـ تح/ د/ خديجة الحديثي، د/ أحمد مطلوب ـ مطبعة بغداد ـ ط/ الأولىٰ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م

البرهان في علوم القرن ـ لأبي عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ـ تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الناشر/ دار إحياء الكتب العربية لعيسىٰ الحلبي ـ ط/ الأولىٰ ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي ت٣٨٨هـ ـ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ تح/ محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام ـ الناشر/ دار المعارف ـ ط/ السادسة ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م.

تأملات في بلاغة القرآن ـ د/ عبدالحميد مصطفىٰ ـ مطبعة الأمانة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ـ لابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) ـ تح د/ حفني شرف ـ المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ـ ط/ ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

تحرير المعنىٰ السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب العزيز المعروف بالتحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) ـ الناشر/ الدار التونسية للنشر ـ ط/ ١٩٨٤م

تحويلات الطلب ومحددات الدلالة ـ د/ حسام أحمد قاسم ـ الناشر/ دار الآفاق العربية ـ ط/ الأولىٰ ٢٠٠٧م

التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ـ أد/ عبدالعظيم المطعني ـ الناشر/ مكتبة وهبة ـ ط/ الثالثة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م

تفسير القرآن العظيم ـ للحافظ اسماعيل بن كثيرٍ (ت٧٧٤هـ) ـ الناشر/ دار الحديث بالقاهرة ـ ط/ الثانية ١٤١٠هـ ١٩٩٠م

تفسير القرطبي المسمىٰ بالجامع لحكام القرآن ـ لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) ـ الناشر/ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط/ الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م

تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ت٧٣٧هـ) ـ ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة / عيسىٰ البابي الحلبي

جامع البيان في تأويل القرآن ـ لأبي محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) ـ تح/ أحمد محمد شاكر ـ (٢٤/ ٣٦٧) ـ الناشر/ مؤسسة الرسالة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

حاشية الدسوقي علىٰ مختصر السعد علىٰ تلخيص المفتاح ـ ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي

حاشية محيىٰ الدين شيخ زادة (ت٩٥١هـ) علىٰ تفسير القاضي البيضاوي ـ تح/ محمد عبدالقادر حسين ـ منشورات بيضون ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

دلالات التقديم والتأخير في القرن الكريم ـ دراسة تحليلية ـ د/ منير محمود المسيري ـ الناشر/ مكتبة وهبة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ـ تح/ الشيخ محمود محمد شاكر ـ الناشر/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ـ ط/ الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

روح البيان ـ لإسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت١١٢٧هـ) ـ الناشر/ دار الفكر ببيروت.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني ـ لشهاب الدين الآلوسي ـ تح/ علىٰ عبدالباري عطية ـ الناشر/ دار الكتب العلمية بيروت ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٥هـ.

سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة بيانية ناقدة ـ أد/ محمود توفيق ـ مطبعة الأمانة بالقاهرة ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

سورة النجم دراسة أسلوبية بلاغية مضمونيه ـ د/ إبراهيم عوض ـ الطائف ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م

شرح المفصل لابن يعيش (ت٦٤٣هـ) ـ تح د/ إميل بديع يعقوب ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

شرح حلية اللب المصون للشيخ أحمد الدمنهوري علىٰ الجوهر المكنون في المعاني والبيان والبديع للأخضري، وحاشية الشيخ مخلوف المنياوي بهامشه ـ الناشر/ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ـ ط/ ١٤٥٧هـ ١٩٣٨م

الصبغ البديعي في اللغة العربية ـ د/ أحمد إبراهيم موسىٰ

صحيح البخاري المسمىٰ بالجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وسننه وأيامه ـ تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر ـ الناشر/ دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ

صحيح مسلم المسمىٰ بـ { المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ـ الناشر/ دار الجيل – بيروت

العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) ـ تح/ مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي.

الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ـ تح/ عماد زكي البارون ـ الناشر/ المكتبة التوفيقية ـ بدون تاريخ

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل ـ لمحمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ـ تح/ يوسف الحمادي ـ الناشر/ مكتبة مصر ـ بدون تاريخ.

لباب التأويل في معاني التنزيل ـ لعلاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بتفسير الخازن ـ الناشر/ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ـ ط/ الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

لسان العرب لابن منظور ـ تح/ عبدالله الكبير وآخرون ـ الناشر/ دار المعارف ـ بدون تاريخ.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ) ـ تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد ـ الناشر/ دار الكتب العلمية – بيروت ط/ الأولىٰ ١٤٢٢هـ

مختصر السعد التفتازاني علىٰ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ـ ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي

المطول ـ للسعد التفتازاني ـ ط/ أحمد كامل ١٣٣٠هـ

معاني القرآن لأبي زكرا يحي بن زياد الفراء ـ تح/ محمد علىٰ النجار ـ ط/ ١٩٦٦م.

مغنىٰ اللبيب عن كتب الأعاريب لأبي عبدالله بن هشام الأنصاري المصري (ت٧٦١هـ)ـ تح/ محمد محي الدين عبدالحميد ـ ـ الناشر/ دار الطلائع ـ ط/ ٢٠٠٩م

مفاتيح الغيب ـ لفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ـ الناشر/ دار الغد العربي ـ ط/ الأولىٰ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

مفردات ألفاظ القرآن ـ للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٠هـ) ـ تح الشيخ/ مصطفىٰ العدوي ـ الناشر/ مكتبة فياض بالمنصورة ـ ط/ الأولىٰ ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

مقاييس اللغة ـ لأحمد بن فارس ت٣٩٥هـ ـ تح/ عبدالسلام هارون ـ الناشر/ دار الفكر للطباعة والنشر.

مواهب الفتاح علىٰ تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (ت١١١١هـ) ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة الحلبي

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ لـ/ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ) ـ (١١/ ٤٠٨) ـ الناشر/ دار الكتاب الإسلامي بـالقاهرة

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
المقدمة	٥٦٥
التمهيد: الصحف تعريفها، ومكانتها في القرآن الكريم	٥٧٠
المطلب الأول: الصحف في اللسان العربي	٥٧١
المطلب الثاني: الصحف من المنظور اللغوي	٥٧٥
المطلب الثالث: مكانة الصحف في القرآن الكريم	٥٧٦
المبحث الأول: الصحف بين المقام، والسياق القرآني	٥٧٩
المطلب الأول: التعنيف والتسلية	٥٨٠
المطلب الثاني: التهديد والتوبيخ	٥٨٨
المطلب الثالث: العتاب	٥٩١
المطلب الرابع: التقريع	٥٩٤
المطلب الخامس: أهوال يوم القيامة	٥٩٧
المطلب السادس: تصحيح الفهوم الخاطئة، والاعتقادات الباطلة	٦٠٠
المطلب السابع: الإخبار والإنذار	٦٠٩
المبحث الثاني: مقامات اتفاق القرآن الكريم لما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عليهما السلام ـ من مبادئ أساسية	٦١٣
المطلب الأول: بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عيهما السلام ـ في سورة النجم.	٦١٤

المحتوى	الصفحة
المقام الأول مقام مؤاخذة الإنسان بذنبه، وإثابته بعمله.	٦١٨
المقام الثاني: مقام طلاقة القدرة الإلهية.	٦٢٣
المقام الثالث: مقام بيان مصير منكري الرسالات	٦٢٩
المطلب الثاني: بلاغة النظم القرآني عما جاء في صحف إبراهيم وموسىٰ ـ عيهما السلام ـ في سورة الأعلىٰ.	٦٣٤
الخاتمة	٦٣٩
فهرس المصادر والمراجع	٦٤٢
فهرس المحتويات	٦٤٨